لكنهما لا يترادفان ، بل ينفرد لفظ الانسان بملحظ خاص من الدلالة يميزه عن الآخر .

لفظ الانس يأتي في القرآن دائما مع الجن على وجه التقابل يطرد ذلك في كل الآيات التي ورد فيها اللفظ تسميا للجن ، وعددها ثماني عشرة آية .

وملحظ الانسية فيه ، بما تعنى من نقيض التوحش ، هو المفهوم صراحة من مقابلته بالجن في دلالتها أصلا على الخفاء الذي هو من ظواهر التوحش .

وبهذه الانسية يتميز جنسنا عن اجناس اخرى خفية مجهولة غير مألوفة لنا ، ولا هي تخضع لنواميس حياتنا .

وأما الانسان فليس مناط انسانيته فيما نستقرىء من آيات البيان المعجز ، أنه انس فحسب ، وانما الانسانية فيه ارتقاء الى الدرجة التي تؤهله لاحتمال تبعات التكليف وأمانة الانسان ، وما يلابس ذلك من تعرض للابتلاء بالخير والشر (1) .

وقد ورد لفظ « الانسان » في القرآن الكريم : في خمسة وستين موضعا نتدبر سياقها جميعا فنهتدينا الى الدلالة المميزة للانسانية .

هو في جنسه العام انس :

« خلق الانسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار » آية 14 سورة الرحمن .

« ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم » .

آية 24 سورة الحجر .

لكنه مع انسيته يختص بالقراءة والعلم (العلق) والبيان (الرحمن) والكسب والتكليف (الانسان ، النجم 39 ، القيامة 14 ، الاسراء 17) . والجدل (الكهف 54) .

ويحتمل الوصية (لقمان 14 ، العنكبوت 8) .

وهموم المكابدة واقتحام العقبة (البلد 4) .

ويحمل الأمانة التي أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها (الأحزاب 72) .

وهو الذي يتعرض لتجربة الابتلاء ومحنة الغواية (الفرقان 29 ، ق 16 ، الحشر 16 ، الانسان 2 ، 4 ، الفجر 15) .

ويزدهيه الغرور فيطغى ويستكبر ، ويضله وهم الاستغناء عن خالقه (العلق 6) وما أكثر ما يذكر القرآن الانسان بضعفه وهو انه كبحا لجماح غروره كيلا يتجاوز قدره فيطغى ! وهو مظنة ان يتمادى به الطغيان والغرور الى حد الكفر بخالقه والوقوف منه سبحانه موقف خصيم مبين (النحل 4 ، مريم 67 : الانفطار 6 ، فصلت 49 ، الزخرف 15 ، عبس 17 ، العاديات 6) .

*

النعمة والنعيم :

وكذلك يلتقي لفظا « النعمة والنعيم » في الدلالة العامة لمادتهما الواحدة المشتركة ، ثم ينفرد كل منهما في البيان القرآني بملحظ خاص يميزه عن الآخر فلا يترادفان .

والمعاجم اللغوية لا تكاد تفرق بين الصيغتين ، والمفسرون يؤولون النعيم بكل ما تحتمله الدلالة المعجمية للمادة .

ونستقرىء الصيغتين في القرآن كله ، فنراه يفرق بينهما تفرقة واضحة :

كل نعمة في القرآن انما هي لنعم الدنيا على اختلاف انواعها . يطرد ذلك ولا يتخلف في مواضع استعمالها ، مفردا وجمعا ، في القرآن وعددها ثلاثة وخمسون موضعا .

أما صيغة النعيم فتختص بنعيم الآخرة . يطرد ذلك ايضا ولا يتخلف في مواضع استعمال القرآن لها وعددها ستة عشر موضعا .

منها خمسة عشر موضعا لا يحتمل صريح سياقها اي تأويل :

التوبة 29 :

« وجنات لهم فيها نعيم مقيم » .

---

(1) انظر تفصيل ذلك الاستقراء في الجزء الثاني من كتابي (التفسير البياني) .

الطـــور 17 :

« ان المتقين فى جنات ونعيم » .

الواقعـــة 89 :

« فأما ان كان من المقربين . فروح وريحان وجنـــة نعيـــم »

المعـــارج 38 :

« ايطمع كل امرىء منهم ان يدخل جنـــة نعيـــم »

المطففـــون 22 :

« ان الابرار لفي نعيم . على الأرائك ينظرون. تعرف فى وجوههم نضرة النعيم » .

الانســـان 20 :

« وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا »

« واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا »

المائـــدة 65 :

« ولأدخلناهم جنات النعيم »

يـــونـــس 9 :

« تجري من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم » .

الحـــج 56 :

« الملك يومئذ لله ، فالذين آمنوا وعملـوا الصالحات فى جنات النعيم » معها آيتـا : الصافات 43 ، الواقعة 12 .

لقمـــان 8 :

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهـم جنات النعيم » .

القلـــم 34 :

« ان للمتقين عند ربهم جنات النعيم »

الشعـــراء 85 :

« واجعلني من ورثة جنة النعيم » .

وتبقى آية التكاثر :

« ثم لتسألن يومئذ عن النعيم »

ولا نستطيع امام اطراد تخصيص القرآن صيغة النعيم لنعيم الآخرة ، ان نفسرها بما حشدت كتب التفسير فيها من نعم الدنيا التي لا تاتي فى القرآن الا بصيغة نعمة او نعماء .

وسر البيان فيها ان الذين الهاهم التكاثـــر فى اعراض الدنيا عن التزود لأخراهم سيسألون يوم يرون الجحيم عين اليقين ، عن النعيم الحق ما هو . وعندئذ يعلمون علم اليقين حقيقة النعيم الذي اضاعوه والهاهم عنه التكالب على نعم الدنيا الفانية واعراضها الزائلة(1)

النـــاى والبعـــد :

يأتي بهما جمهرة اللغويين والمفسرين ، تأويـــلا لاحدهما بالآخر ، دون اشارة الى فرق بينهما .

وفرق بينهما من انكروا الترادف . ونستقرىء مواضع الاستعمال القرآني للناى والبعد فلا يترادفان:

فليس فى القرآن ناى ، الا بمعنـــى الاعراض والصد والاشاحة ، بصريح النص والسياق فى آيات .

الاسراء 83 :

« واذا انعمنا على الانسان اعرض **وناى** بجانبه »

الانعـــام 26 :

«حتى اذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا اساطير الاولين ، وهم ينهون عنه**ويناون** عنه وان يهلكون الا انفسهم وما يشعرون »

اما « البعد » فيأتي فى القرآن على الحقيقـــة او المجاز ، فى البعد المكاني او الزماني . المادي منهما والمعنوي ، كما هو واضح فى آيات : .

التوبـــة 42 :

« لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعـــوك ولكن **بعدت** عليهم الشقة »

ســـبـــا 19 :

« فقالوا ربنا **باعد** بين اسفارنا »

---

1) أوضحت ذلك بمزيد تفصيل فى تفسير سورة التكاثر بالجزء الأول من (التفسير البياني للقـــرآن الكريم) .

الزخرف 28 :
« قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين »

الانبيـــاء 109 :
« وان ادرى اقريب ام بعيد ما توعدون »

الفرقان 12 :
« اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا »

النمـــل 22 :
« فمكث غير بعيد فقال احطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين »

سبـــأ 52 و 53 :
وانى لهم التناوش من مكان بعيد ، وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد »

فصلت 44 :
« اولئك ينادون من مكان بعيد »

ق 32 :
« وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد »

آل عمران 30 :
« تود لو ان بينها وبينه امدا بعيدا »

المعارج 6 :
« انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا »

الانبياء 101 :
« اولئك عنها مبعدون »

هـــود 83 :
« وما هي من الظالمين ببعيد »

هـــود 95 :
« الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود »

هـــود 14 :
وقيل بعدا للقوم الظالمين »
معها هود 60 ، 68 المؤمنون 41 ، 44 .

والبعد فى المعنويات مثل شقاق بعيد (البقرة 176، الحج 53 ، فصلت 52) وضلال بعيد (ابراهيم 3 ، 18 النساء 6 ، 126 ، 136 ، 167 ، الحج 12 ، الشورى 18 ، سبأ 8 ، ق 27 ، الشورى 18) .

ياتي دائما فى مقابل القرب .

على حين يخلص النأى للمعنوي المحـض ، فى الصد والاعراض نقيض الاقبال .

حلـــف ، واقســـم :

يقال بترادفهما كما نـص على ذلـك صاحب القاموس . وقد تاتى حلف فى شواهد من الشعـــر الجاهلي بمعنى اقسم ، فى مثل قول النابغة :

« حلفت فلم اترك لنفسك ريبة »

والاعشـــى :
« حلفت له بالراقصات الى منى »

وشماس بن عبده :
« حلفت بما ضم الحجيج الى منى »

لكن التتبع الاستقرائي للمادتين فى القـــرآن الكريم يمنع ترادفهما :

جاءت مادة « حلف » فى ثلاثة عشر موضعـــا ، كلها بغير استثناء فى الحنث باليمين .

والغالب ان ياتي بالفعل مسندا الى المنافقيـــن كآيات التوبة :

« وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون انفسهم والله يعلم انهم لكاذبون » (42)

« ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم » (56)

« يحلفون بالله ليرضوكم والله ورسوله احـــق ان يرضوه ان كانوا مؤمنين » (62)

« يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفـــر وكفروا بعد اسلامهم » (74)

« يحلفون لكم لترضوا فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » (96)

« وليحلفن ان اردنا الا الحسنى ، والله يشهـد بانهم لكاذبون » (107)

ومعها فى المنافقين كذلك آيات :

النساء 62 ، المجادلة 14 ، 18 .
وآيـــة القلـــم :

« ولا تطع كل **حلاف** مهين ، همار مشاء بنميم . مناع للخير معتد اثيم »

وجاء الفعل مرة واحدة مسندا الى الذين آمنوا ، فوجبت عليهم **كفارة الحنث باليمين** :

« ذلك كفارة ايمانكم اذا حلفتم » المائدة 89 .

* × *

اما القسم فيغلب استعماله فى الايمان الصادقة. وجاء موصوفا بالعظمة فى آية :

« وانه لقسم لو تعلمون عظيم »

وجاء الفعل فى الشهادة ومثلها ، حيث لا يحمل الحنث باليمين . كالشهادة حين الوصية (المائدة 106 ، 107) .

وحين يسند القسم فى القرآن الى المجرمين او الكفار ، فانهم **يقسمون عن اقتناع بصدق ما يقسمون عليه** .

الروم 55 :

« ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة »

الانعام 109 :

« واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها »

ومعها آيات :

الاعراف 49 ، ابراهيم 44 ، المائدة 53 ، النحل 38 ، النور 53 ، فاطر 42 .

وامام هذا البيان القرآني ، لا يهون ابدا ان نفسر القسم بالحلف ، وصنيع القرآن يلفت الى فرق دقيق بين هذين اللفظين المقول بترادفهما .

فان لم نقل ان القسم لليمين الصادقة ، والحلف لليمين الكاذبة ، على اطلاقهما . فلا اقل من ان يكون بين دلالتهما الفرق بين العام والخاص : فيكون القسم لمطلق اليمين بعامة . ويختص الحلف بالحنث فى اليمين ، على ما اطرد استعماله فى البيان الاعلى .

* × *

زوج ، وامراة :

وترى البيان القرآني يستعمل لفظ « زوج » حيثما تحدث عن آدم وزوجه :

« وقلنا يا آدم اسكن انت **وزوجك** الجنة » البقرة 35 والاعراف 19 .

« فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك » طه 117 .

على حين يستعمل « امراة العزيز ، وامراة نوح، وامراة لوط ، وامراة فرعون .

وقد يبدو من اليسير ان يقوم احد اللفظين مقام الآخر ، فنفسر زوج آدم بامراة آدم ، وامراة فرعون بزوج فرعون .

وذلك ما ياباه البيان المعجز .

وهو الذي يعطينا سر الدلالة فى الزوجية مناط العلاقة بين آدم وزوجه فى قصة اول زوجين من البشر . ولم تكن زوج آدم نمطا من النساء او امراة من اخريات ، بل كانت وحدها الزوج ، وكانت **الزوجة** ولا شىء غيرها ، **مناط علاقتها** بآدم وسر وجودها .

وليس الامر كذلك فى امراة العزيز وامراة نوح وامراة لوط وامراة فرعون ، وسياق الحديث عنهن من حيث **هن انماط** من النساء، وليس عن العلاقة الزوجية بينهن وبين ازواجهن . والعبرة فى قصصهن ان كل واحدة منهن مضرب المثل :

امراة العزيز تراود فتاها عن نفسه ؟
امراة نبي وتخونه !
امراة طاغية متجبر كافر ، تؤمن بالله .

ونستقرىء استعمال القرآن للفظ زوج وازواج» نجد هذا الملحظ فى كون العلاقة الزوجية هي التي يوجه اليها السياق :

آيات (النساء) فى النفس الواحدة خلق منها زوجها (الاعراف 189 ، الزمر 6 ، الروم 21 ، النحل 72) وفى الزوجين خلقهما الله من نفس واحدة ، او من ذكر وانثى : (النساء 1 ، الاعراف 188 ، الزمر 6، النحل 72 ، الروم 21 الشورى 11) ومعها : النبا 8 ، الشعراء 166 ، والذاريات 49 ، النجم 45 ، القيامة 19 ، فاطر 11 .

وفى فلك نوح جعل فيها من كل زوجين اثنين :

المؤمنون 27 ، هود 40 .

وفيما شرع الله من احكام الزوجية ، وما نزل فى ازواج النبي صلى الله عليه وسلم من توجيهات ،

مثل آيات البقرة 230 ، 240 ، آل عمران 90 النساء 11 ، 19 الانعام 139 ، الحجر 88 ، النور 6 ، 30 ، طه 131 ، التحريم 1 : 5 ، المجادلة 1 ، الممتحنة 11، الاحزاب 28 ، 37 ، 50 : 59 .

* × *

واكتفي بما قدمت من شواهد وامثلة تؤيد ما ذهب اليه المحققون من أهل اللغة في انكار الترادف الا ان يجيء في لفتين : « فاما ان يجيء في لغة واحدة فمحال ان يختلف اللفظان والمعنى واحد كما ظن غير المحققين من النحويين واللغويين ، وانما سمعوا العرب تتكلم بذلك على طباعها وما في نفوسها من معانيها المختلفة،وعلى ما جرت به عادتها وتعارفها، ولم يعرف السامعون تلك العلل والفروق فظنوا ما ظنوه من ذلك وتاولوا على العرب ما لا يجوز في الحكم » (1)

وقد ينبغي لي أن اعترف هنا بقصوري عن لمح سر الدلالة لبعض الفاظ تبدو مترادفة ، فليس لي ان اقر بالعجز وانا اتمثل بكلمة ابن الاعرابي :

« كل حرفين اوقعتهما العرب على معنى واحد ، في كل منهما معنى ليس في صاحبه ، وربما عرفناه فاخبرنا به ، وربما غمض علينا فلم نلزم العرب جهله » (2) .

الاساليب وسر التعبير

قد نكون عرفنا البلاغة العربية علما وتقفناها صناعة ومنطقا .

غير اننا ما نزال في اشد الحاجة الى ان نجتليها ذوقا اصيلا وحسا مرهفا في آيات الفصاحة العليا والبيان المعجز .

الاستغناء عن الفاعل :

واحاول فيما بقي من المجال المحدود للبحث ، ان اقدم بعض ما هدى اليه البيان القرآني في أساليب غاب عن كثير منا سر التعبير فيها والبيان .

من الظواهر الاسلوبية اللافتة في البيان المعجز ظاهرة الاستغناء عن الفاعل التي توزعت في دراساتنا وكتبنا بين ابواب شتى متباعدة ، لا تعطي سر هذا الاستغناء ، فانت تقرأ في الصرف كيفية بناء الفعل للمجهول وصيغ المطاوعة . وفي النحو أحكام نائب الفاعل . اما لماذا حذف الفاعل فذلك موضوع آخر ندرسه في علم آخر هو علم المعاني التي انفصلت عن الاعراب فعاد هذا الاعراب صنعة ، وهو في الاصل من صميم المعنى . كما ندرس في علم البيان اسناد الفعل الى غير فاعله على سبيل المجاز ، دون أن نحاول جمع هذا الشتات المنتشر للظاهرة الاسلوبية لاجتلاء سرها الذي من أجله تستغني العربية عن الفاعل فتسنده الى غير فاعله : بالبناء للمجهول ، او بالمطاوعة ، او بالاسناد المجازي .

— ◆ —

وقد لفتني اطراد ظاهرة الاستغناء عن الفاعل في البيان القرآني في موقف واحد هو موقف القيامة :

اما بالبناء للمجهول في مثل آيات :

« فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة »

« وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة »

« اذا رجت الارض رجا . وبست الجبال بسا »

« يوم ينفخ في الصور فتاتون افواجا »

« وفتحت السماء فكانت ابوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا »

« فاذا النجوم طمست . واذا السماء فرجت . واذا الجبال نسفت »

« اذا الشمس كورت . واذا النجوم انكدرت . واذا الجبال سيرت . واذا العشار عطلت . واذا الوحوش حشرت. واذا البحار سجرت. واذا النفوس زوجت . واذا الموءودة سئلت . باي ذنب قتلت. واذا الصحف نشرت . واذا السماء كشطت . واذا الجحيم سعرت . واذا الجنة ازلفت . علمت نفس ما احضرت »

« كلا اذا دكت الارض دكا دكا »

---

1) ابو هلال العسكري : الفروق اللغوية 12 .
2) ابو هلال العسكري : الفروق اللغوية 65 .

« وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان وانى له الذكرى »

« افلا يعلم اذا **بعثر** ما فى القبور . **وحصل** ما فى الصدور »

ومعها آيات النفخ فى الصور ، وكلها بلا استثناء مبنية للمجهول .

واما ان يستغنى عن ذكر الفاعل ، باسناد الحدث الى غير فاعله مطاوعة او مجازا كما فى آيات :

« **اقتربت** الساعة **وانشق** القمر »
« فاذا **انشقت** السماء **فكانت** وردة كالدهان »
« اذا السماء **انفطرت** . واذا الكواكب **انتثرت** »
« اذا السماء **انشقت** . **وادنت** لربها وحقت »
« واذا الارض مدت . **والقت** ما فيها **وتخلت** »
« يوم **تشقق** الارض عنهم سراعا »
« يوم **تمور** السماء مورا . **وتسير** الجبال سيرا»
« فارتقب يوم **تاتي** السماء بدخان مبين »

« فاذا **برق** البصر . وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر »

« **واخرجت** الارض اثقالها. وقال الانسان مالها. يومئذ **تحدث** اخبارها »

والبلاغيون يقولون فى حذف الفاعل ، انه يحذف للخوف منه او عليه ، وللعلم او الجهل به .

وقد مضى المفسرون على تقدير فاعل محذوف لاحداث يوم القيامة ، هو الله سبحانه ، او ملك من ملائكته؛ مع وضوح العمد فى البيان القرآني الى صرف النظر عن الفاعل والاستغناء عن ذكره . واكثر ما قالوه فى تاويل ذلك ، ان الفاعل محذوف للعلم به. وفى القرآن آيات **لا تحصى لم يحذف** الفاعل فيها مع **يقين العلم** به . فما سر ظاهرة الاستغناء عنه فى احداث القيامة ؟

يهدينا تدبر السياق الى :

ان اساليب البناء للمجهول والمطاوعة والاسناد المجازي الى غير الفاعل ، تلتقي جميعا فى الاستغناء عن ذكر الفاعل .

ان اطراد هذه الظاهرة فى موقف البعث والقيامة ، ينبه الى اسرار بيانية وراء ضوابط الصنعة الاعرابية والاحكام البلاغية التي تجمدت فى اجراءات المنطق البلاغي .

فبناء الفاعل للمجهول ، فيه **تركيز الاهتمام على الحدث بصرف النظر عن محدثه .**

والمطاوعة ، فيها بيان **للطواعية** التي يتم بها الحدث **تلقائيا** او على وجه التسخير، **وكانه ليس فى حاجة الى فاعل .**

والاسناد المجازي ، يعطي المسند اليه **فاعلية مؤكدة محققة** ، تجعله يحل محل الفاعل الاصلي **ويغني** عن ذكره .

— ◆ —

السجع ورعاية الفواصل :

منذ بدا عصر التاليف فى الدراسات القرآنية والبلاغية ، فرضت قضية الفواصل نفسها على الاجيال الاولى من علماء العربية،وان لم تستقل بمباحث مفردة، بل جاءت عارضة فى ثنايا المصنفات القرآنية المبكرة .

فابو عبيدة من القرن الثاني للهجرة ، يقف فى كتابه (مجاز القرآن) عند الفاصلة بين حين وآخر ، اذا لحظ فيها عدولا عن مالوف الاستعمال اللغوي ، موجها همه الى الاحتجاج لهذا العدول بان « العرب تفعل ذلك فى كلامها » وهي العبارة التي تلقانا كثيرا فى (مجاز القرآن) .

كذلك لم يعرض « الفراء » وهو من لغوي القرن الثاني ـ ت سنة 207 هـ ـ لمسالة الفواصل عرضا مباشرا فى كتابه (معاني القرآن) ولكنه حدد رايه فى موقف القرآن منها تحديدا صريحا فى تفسيره اللغوي لمعاني القرآن ، وترجيحه بين القراءات . وعنده ان القرآن يراعي الفاصلة عمدا ليتحقق بها جمال النظم : فيقدم او يؤخر ويؤثر لفظا على آخر فى معناه ، او يعدل عن صيغة للكلمة الى صيغة اخرى ، رعاية للفاصلة ، او رءوس الآيات ، كما يسميها ، كالذي تراه مثلا فى توجيهه لفواصل من سور الرحمن ، والضحى ، والفجر .

وعلى كثرة ما عرض « الفراء » للفواصل وبخاصة فى السور المكية ، لم يذكرها باسم الفواصل وانما هي عنده رءوس آيات ، وان ثبت على مذهبه فى ان القرآن يرعاها قصدا الى رعاية الجرس الصوتي والمشاكلة اللفظية . مع تحاشيه ذكر « السجع » .

وانكر « ابن قتيبة » مذهب « الفراء » فى هذه الرعاية اللفظية للمقاطع ورؤوس الآيات .

وحتى القرن الثالث الهجري ، كان التحـــرج واضحا من القول بالسجع في القرآن . وكانمـــا كان الحس المؤمن ينبو بالكلمة ، لكثرة ما اطلقت من قديم على سجع الكهان .

ولكن القضية ما لبثت ان دخلت معترك الجدل الكلامي بين الفرق الاسلامية ، فارتبطت بالاعجـــاز بالنظم ، وبدات تستقل بمباحث مفردة :

الاشاعرة قرروا نفي السجع عن القرآن ، وآثروا لفظ الفواصل على السجع،محاولين ان يفرقوا بينهما، بان الفواصل يتبع اللفظ فيها المعنى فيه اللفظ (1) .

ولا يبدو لنا وجه تمييزهم بين السجع والفواصل القرآنية واضحا ولا قويا ، فيما نقل عنهم «الباقلاني» فهو يقيم الفرق احيانا على ملاحظ شكليـــة من تفاوت المقاطع بين الفاصلتين طولا وقصرا ، وهذا عنـــده اخلال بضوابط السجع ومقاييســه .

والمعتزلة نفوا كذلك القول بالسجع في القرآن نفيا باتا ، مقررين ان الفواصل بلاغة والسجع عيب . وبسط « الرماني » هذا المذهب في رسالته في اعجاز القرآن ، محتجا للفواصل القرآنية بأن العبرة فيهـا بالمعنى . وان لم يمتنع عنده أن يكون للجرس الصوتي والتلاف الايقاع حظه من التقدير (2) .

ولكن من **البلاغيين**من لم يطمئنوا الى هذه التفرقة بين الفواصل والسجع ، وان اجمعوا على اعجاز البيان القرآنـــي .

منهم « ابن سنان الخفاجي » الـــذي قال في (سر الفصاحة) :

« .... واما الفواصل التي في القرآن ، فانهم سموها فواصل ولم يسموها اسجاعا. وفرقوا فقالوا ان السجع هو الذي يقصد في نفسه ثم يحمل المعنـــى عليه . والفواصل هي التي تتبع المعاني ولا تكـــون مقصودة في انفسها . وقال الرماني ان الفواصل بلاغة والسجع عيب ، وعلل ذلك بما ذكرناه من ان السجع تتبعه المعاني والفواصل تتبع المعاني . وهذا غيـــر صحيـــح » (3) .

وحرر الموقف فقال ان **التكلف كما يعرض في السجع عند تماثل الحروف ، يعرض في الفواصل عند تناسب الحروف**، والتكلف في كليهما مذموم مرفوض. اما ان يأتي التماثل والتقارب طوعا سهلا وتابعا للمعاني، فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان . ولم يرد في القرآن الا ما هو من هذا الضـــرب لعلـــوه في الفصاحة .

ثم قال ... « واظن ان الذي دعا اصحابنا الى تسمية ما في القرآن فواصل ولم يسموا ما تماثلـــت حروفه سجعا ، رغبة في تنزيه القرآن عـــن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم . وهذا في التســمية قـــريب ، فامـــا الحقيقـــة فمـــا ذكرنـــاه » (4) .

وكذلك لم ير « ابن الاثير » في (المثل السائر) وجها لذم السجع على الاطلاق ونفيه عن القرآن جملة. فهناك سجع بليغ ، الفاظه حلوة حادة طنانـــة رنانـــة لا غثة ولا باردة ، والمعنى فيه تابع للفظ ، وكل فقرة من المجموعتين دالة على معنى غير الذى دلت عليه اختهـــا (5) .

« وابو هلال العسكري » في فاتحة (اســـرار البلاغة) يرى من السجع ما هو حسن بليـــغ ، اللفظ فيه استدعاه المعنى . وعنده ان مثل هذا السجـــع حلية في الكلام ، ويعجبه منه الرونق اللفظي الذي هو عنده من اسرار الاعجاز (6) .

« وابن حمزة العلوي » في باب التسجيع مـــن (الكتاب المرسوم بالطراز) لم يعرض للخـــلاف بيـــن الاسجاع والفواصل ، ولا ناقش القائلين بالسجع في القرآن والقائلين بنفيه ، لكنه قرر ان التسجيع « من علوم البلاغة ، كثير التدوار عظيم الاستعمال في السنة

---

1) الباقلاني : اعجاز القرآن ، (في نفي السجع عن القرآن) .
2) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ص 97 ، ط الذخائـــر .
3) الخفاجي : سر الفصاحة : 164 .
4) الخفاجي : سر الفصاحة : 166 .
5) ابن الاثير : المثل السائر ، ص 74 ، 97 ــ ط البهية بالقاهرة سنة 1312 .
6) اســـرار البلاغـــة : 7 .

البلغاء ، ويقع في الكلام المنثور ، وهو في مقابلة التصريع في الكلام المنظوم الموزون في الشعر » (1)

وواضح من مسلكه في الاستشهاد لكل نوع من انواع التسجيع بآيات قرآنية ، انه يذهب مع القائلين بوجود السجع في القرآن .

« وابن ابي الاصبع المصري » (585 : 654 هـ) في كتابه (بديع القرآن لا يبدو مستقرا على راي في الموضوع ، ففي باب (ائتلاف الفاصلة) ينفي السجع عن فواصل القرآن ، وفي باب (التسجيع) ياتي بشواهد قرآنية على فنون التسجيع (2) .

— ◆ —

واراني اطلت في عرض اقوال السلف في الفواصل القرآنية والسجع ، توطئة لتدبر **اسرار التعبير في هذه الظاهرة الاسلوبية من البيان المعجز .**

وقد راينا كيف تباعدت بهم السبل بين الطرفين المتقابلين :

ففي البيئة الكلامية ، اختلفت الفروق الاسلامية بين نفي السجع في القرآن نفيا باتا على ما نقلنا من كلام الاشاعرة والمعتزلة .

وبين القول بوجوده في النظم القرآني . قال به من الشيعة « يحيى بن حمزة العلوي » وفي البيئة اللغوية والبلاغية ، تباعد الخلاف بين مذهب « الفراء» في ان السجع في القرآن مقصود لذاته ، وانه ربما عدل عن نسق الى آخر وءاثر لفظا على غيره في معناه، قصدا الى المشاكلة واتفاق رؤوس الآيات .

وبين من انكروا ، كابن سنان الخفاجي وابن الاثير،ان تكونمعاني الفواصل القرآنية تابعة للالفاظ.

وراينا من الاقدمين من فرقوا بين الفواصل والاسجاع ، اما بملحظ شكلي من توازن المقاطع طولا وقصرا وتماثل اواخرها او تقاربها ، وهو راي «القاضي الباقلاني » . واما بملحظ معنوي في مجيء اللفظ تابعا للمعنى او العكس كراى «علي بن عيسى الرماني».

لكن اكثر البلاغيين لم يروا فرقا بين الفواصل والسجع ، فكلاهما يعرض له الاستكراه والتكلف فيهبطان عن مستوى البلاغة ، كما قد ياتي كلاهما طواعية دون قلق او استكراه بتوجيه المعنى ، فيرقى الاسلوب بلاغيا وتكتمل له قوة المعنى ورونق اللفظ .

وعندهم ان الامر في التفرقة بين الاسجاع والفواصل ليس الا كراهة القول بالسجع في القرآن، بعد ان شاع اطلاقه على سجع الكهان .

وما نزال نجد جفوة تجاه لفظ السجع ، لطول ما ابتذلته الصنعة اللفظية والزخرف البديعي ، في اساليب العصور المتاخرة ، بعد ان اصطنعه الكهان في العصر الجاهلي .

ومن ثم نؤثر ان نمضي على تسمية مقاطع الآيات في النظم القرآني بالفواصل ، وهو ما جرى عليه اكثر المفسرين .

وبعد الذي سقناه من خلافهم فيها بين اللفظ والمعنى نتدبر الفواصل القرآنية **فلا نرى البيان القرآني يتعلق في اي فاصلة منها بمجرد رعاية شكلية للرونق اللفظي ، وانما تاتي فواصله جميعا لمقتضيات معنوية بيانية مع نسق الايقاع بهذه الفواصل ، والتلاف الجرس ، على نحو تتقاصر دونه طاقة البلغاء .**

واختار هنا شواهد من الفواصل التي وهم «الفراء» ومن ذهب مذهبه فحملوها على قصد المشاكلة اللفظية بين رؤوس الآيات بايثار نسق على آخر او العدول عن لفظ الى غيره في معناه .

ونختلف معهم ابتداء في القول بلفظين لمعنى واحد . وقد سبق بيان ذلك في الترادف وسر الكلمة.

ثم ننظر في هذه الفواصل :

« والضحى والليل اذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى »

قال « الفراء » ان القرآن جرى فيها على طرح الكاف من « قلاك » ــ ومن : فآوى فهدى ، فاغنى ــ لمشاكلة رؤوس الآيات .

وعد « الفخر الرازي » من وجوه حذف الكاف ، رعاية الفاصلة (3) .

---

1) الطراز : باب التسجيع ، ط المقتطف بالقاهرة 1914 .
2) بديع القرآن : ص 89 ، 108 ط نهضة مصر بالفجالة 1957 .
3) الرازي : التفسير الكبير ، سورة الضحى .

ومثله « النيسابوري » في تفسيره لآيات الضحى (1) .

ولو كان البيان القرآني يتعلق بهذا الحذف لمجرد النسق اللفظي ، لما عدل عن رعاية الفاصلة في الآيات بعدها :

فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث »

وليس في السورة كلها ثـاء فاصلة .

بل ليس فيها ثـاء على الاطلاق .

وعلى مذهبهم كانت الفواصل ترمى بمثل لفظ « فخبر » ــ وأما بنعمة ربك فخبر ــ لتستقيم الصنعة البلاغيـة .

ونرى ان حذف الكاف من « وما قلى » مع دلالة السياق عليها ، تقتضيه حساسية معنوية مرهفة بالغة الدقة واللطف ، هي تحاشي خطابه تعالى حبيبه المصطفى في موقف الايناس : « وما قلاك » لما في القلى من حس الطرد والابعاد وشدة البغض . أما التوديع فلا شيء فيه من ذلك ، بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بانه لا يكون وداع الا بين الاحباب ، والفراق فيه على كره ، ومع رجاء العودة .

وحذفت كاف الخطاب في الآيات بعدها ، لان السياق بعد ذلك أغنى عنها ومتى أعطى السياق الدلالة المرادة مستغنيا عن الكاف ، فذكرها من الفضول والحشو المنزه عنهما أعلى بيان .

— ◆ —

وآيات الفجر :

« ... والليل اذا يسر . هل في ذلك قسم لذي حجر . ألم تر كيف فعل ربك بعاد . ارم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الاوتاد ... »

قال « الفراء » في (معاني القرآن) ان ياء العلة حذفت من الفعل : يسر (ي) قصد المشاكلة بين رؤوس الآيات . وكذلك ذهب « ابن سنان الخفاجي » الى ان حذفها وحذف ياء : بالواد (ي) لتماثل الفواصل

ويكفي للرد عليهما وعلى كل من ذهب الى مثل ما ذهبا اليه ، ان نذكر ان القرآن الكريم لم يقتصر على حذف الياءهنا في **مقاطع الآيات** ، ليقال انه قصد الى مجرد رعاية الفواصل وتماثلها .

وانما حذفت ياء المعتل الآخر المرفوع ، وواوه ايضا ، وياء المنقوص المحلي بال ، في **أواسط الجمل ودرج الكلام** ، كالذي في آيات :

ق 41 :
« واستمع يوم **ينادِ المناد** من مكان قريب »

النازعات 16 :
« اذ ناداه ربه **بالواد** المقدس طوى »

طـه 12 :
« فلما اتاها نودي من شاطىء **الوادِ** الايمن في البقعة المباركة »

النمـل 18 :
« حتى اذا اتوا على **وادِ النمل** قالت نملة يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون »

الـروم 53 :
« وما انت **بهادِ** العمى عن ضلالتهم »

هـود 105 :
« يوم **يأتِ** لا تكلم نفس الا باذنه »

الاسـراء 11 :
« **ويدعِ** الانسان بالشر دعاءه بالخير »

البقـرة 186 :
« واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لي »

القمـر 6 :
« فتول عنهم يوم **يدعِ الداعِ** الى شيء نكر »

القمـر 8 :
«مهطعين الى **الداعِ** يقول الكافرون هذا يوم عسر»

- **ولا مجال** لقول في هذه الآيات وامثالها بحذف ياء المنقوص المعرف بال ، او آخر المضارع المرفوع المعتل بالواو والياء ، **لرعاية الفواصل ومشاركة رؤوس الآيات** . وهذا ما فات الذين تعجلوا بمثل هذا

(1) على هامش تفسير الطبري . ط مصر .

القول فى آيتي الفجر ونظائرهما ، محتكمين الى قواعد اللغويين فى احكام الحذف لحرف العلة او الاثبات ، فى المضارع المعتل الآخر والاسم المنقوص . حين ينبغي ان نعرض قواعدهم على ما يهدي اليه الاستقراء لكل مواضع الحذف والاثبات فى الكتاب المحكم والبيان المعجز .

وآيتا الاعلى :

« سبح اسم ربك **الاعلى** . الذي خلق فسوى »

والليل :

« الا ابتغاء وجه ربه **الاعلى** . ولسوف يرضى »

ليست صيغة الاعلى معدولا اليها فيها عن العلي لمجرد رعاية الفاصلة ، ولا اريد بها المفاضلة بين اعلى وعال ، على ما وهم بعضهم . وقد اشار «الفخر الرازي» الى ما تعلق به الملاحدة فى : ربه الاعلى « من اقتضاء ان يكون هناك رب آخر » (1) على ما يقضي به منطق التفضيل وقواعده .

وذلك من عقم الحس فيهم ، يغيب عنه السر البياني فى اطلاق هذه الصيغة دون قصد الى مفاضلة او ترتيب ، **وانما القصد الى المضي بالعلو الى نهايته القصوى** بغير حدود ولا قيود .

وهو نفس الملحظ الدلالي لصيغ : الحسنى ، واليسري ، والاتقى ، والاشقى ، فى سورة الليل ، للدلالة على غاية الحسن والتقوى ، واقصى السوء والشقاء الذي لا يماثله شقاء .

ومثلها صيغة الاكرم فى آية القلم :

« اقرا وربك **الاكرم** . الذ ي علم بالقلم »

تناولها المفسرون على المفاضلة بين اكرم وكريم ، وساقوا وجوها لاكرميته تعالى . (2)

والاستقراء القرآني ، يشهد بان صيغتي الافعل والفعلى ، تفيدان الاطلاق الى **اقصى المدى** ، بغير قيد ولا حدود .

وهذه هي دلالة **الآية الكبرى** فى (النازعات والنجم) **وآياتنا الكبرى** فى (طه) والبطشة **الكبرى** فى (الدخان) والطامة **الكبرى** فى (النازعات) والنار **الكبرى** فى (الاعلى) والكلمة **السفلى** والكلمة **العليا** في (التوبة)

— * —

وفى التقديم والتاخير قالوا برعاية الفاصلة فى فى مثل آية الليل :

« ان علينا للهدى . وان لنا للآخرة **والاولى** »

علل البيان القرآني فيها عما هو مالوف ومتبادر، من تقديم الاولى على الآخرة . وليس التعلق برعاية الفاصلة هو الذي اقتضى وحده تقديم الآخرة هنا على الاولى . وانما اقتضاه المعنى فى سياق البشرى والوعيد ، اذ الآخرة خير وابقى ، وعذابها اكبر واشد، واخزى وابقى .

وكذلك قدمت **الآخرة على الاولى** فى سياق البشرى للمصطفى بآية الضحى : « وللآخرة خير لك من الاولى » .

كما قدمت الآخرة على الاولى فى سياق الوعيد لفرعون اذ ادبر وتولى «فاخذه الله نكال **الآخرة والاولى**»

النفى مع القسم :

ومن الظواهر الاسلوبية اللافتة فى البيان القرآني **مجيء القسم بعد لا النافية** فى مثل قوله تعالى :

«لا اقسم بيوم القيامة. ولا اقسم بالنفس اللوامة»

وقد اختلف اللغويون فى تاويل حرف « لا » وتوجيه القسم بعده . وجاء به « ابن هشام » فى باب : لا ، الزائدة فى الكلام لمجرد تقويته وتاكيده .

ولخص مختلف اقوالهم فيها :

— قيل هي نافية . ثم اختلفوا فى تاويل المنفى بهـا :

منهم من قال انها تنفي شيئا **تقدم** فى سورة اخرى . انكر المشركون البعث فقيل لهم : لا ، ليس الامر كذلك . ثم استؤنف القسم : اقسم » .

ووجه هذا التاويل عندهم ان القرآن كله كالسورة الواحدة . ولهذا يذكر الشيء فى سورة ، وجوابه فى سورة اخرى ، ومما ذكروه من ذلك ، قوله تعالى :

« وقالوا يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون» جوابه فى سورة اخرى :

« ما انت بنعمة ربك بمجنون »

ورده ابو حيان بانه لا يجوز ، لان فى ذلك حذف اسم « لا » وخبرها . وليس جوابا لسائل سال

(1 و 2) الفخر الرازي . التفسير الكبير ، سورة الليل . وسورة القلم .

فيحتمل ذلك ، نحو قوله : لا ، لمن قال : هل من رجل في الدار (1)

واما انها تنفي الفعل « اقسم » وذلك على أن يكون اخبارا لا انشاء، على تقدير ان المقسم به يستحق اعظاما فوق القسم »

وقيل هي زائدة . على خلاف كذلك في فائدتها:

منهم من قال انها زيدت توطئة وتمهيدا لنفي الجواب محذوفا . وتقديره في آية القيامة « لا اقسم بيوم القيامة . ولا اقسم بالنفس اللوامة » لا يتركون سدى .

ورد هذا التاويل بان الجواب مثبت في مثل قوله تعالى :

« لا اقسم بهذا البلد . وانت حل بهذا البلد . ووالد وما ولد. لقد خلقنا الانسان في كبد »

وقوله تعالى :

« فلا اقسم بمواقع النجوم . وانه لقسم لو تعلمون عظيم . انه لقرآن كريم » .

ـ وذهب آخرون ممن قالوا بزيادتها الى انها زيدت لمجرد التاكيد وتقوية الكلام ، كما في قوله تعالى :

« لئلا يعلم اهل الكتاب الا يقدرون على شيء من فضل الله » الحديد 29 .

. ورد بانها لا تزاد لذلك في صدر الكلام ، بل يجب ان تزاد حشوا . لان زيادة الشيء تفيد اطراحه، وكونه في اول الكلام يفيد الاعتناء به (2)

وقول ثالث : انها ليست نافية ولا زائدة ، وانما هي لام الابتداء كقول الشاعر :

« اعوذ بالله من العقراب »

اشبعت الفتحة فتولدت منها الف ، وانما هي : لاقسم . وهي قراءة الحسن لآية « فلا اقسم برب المشارق » اشبعت فتحة اللام حتى تولدت منها الف ، كقراءة هشام لآية ابراهيم : « فاجعل افئيدة من الناس تهوى اليهم » بياء بعد الهمزة ، تولدت من اشباع كسرتها (2) .

ولما كانت لام الابتداء لا تدخل على الفعل، قدروا دخولها في الآية على جملة من مبتدا وخبر : فلانا اقسم . ثم حذف المبتدا .

ورد « الزمخشري » بان اللام في هذه القراءة لا تصح ان تكون لام القسم لامرين : احدهما ان حقها ان يقرن بها النون المؤكدة ، والاخلال بها ضعيف قبيح، والثاني ان سياق الآية يرشد الى ان القسم بمواقع النجوم وقع ، ومقتضى جعلها جوابا لقسم محذوف ان تكون للاستقبال ، وفعل القسم يجب ان يكون للحال (3) .

— ◆ —

وبعد هذا كله نرد الى القرآن ما تنازعوا فيه ، فنستبعد بادىء ذي بدء ان تكون (لا) في آيات القسم، ردت على كلام سبق في سورة اخرى . وهذا التاويل يبدو غريبا فيما نظروا له من قوله تعالى : « ما انت بنعمة ربك بمجنون » ردا على ما حكى من قولهم « انك لمجنون » ووجه الغرابة فيه ان الرد سابق في النزول على ما حكى القرآن من قولهم : « انك لمجنون »

اذ كيف تكون آية من سورة القلم ، وهي ثاني سورةنزلت من القرآن ، ردا على آية نزلت بعدها في سورة الحجر،وترتيبها في النزول الرابعة والخمسون؟ وتاويل « لا اقسم » بانها « لاقسم » اشبعت فتحة الالف فيها فتولدت منها الف ، يبدو من شطط التاويل تجاه اطراد مجيء « لا » في كل آيات القسم القرآني حيثما كان الفعل مسندا الى الله تعالى :

الواقعة 75 :

« فلا اقسم بمواقع النجوم . وانه لقسم لو تعلمون عظيم . انه لقرآن كريم »

الحاقة 38 :

« فلا اقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون . انه لقول رسول كريم »

---

1) البحر المحيط : 8 / 212 سورة الواقعة .
2) ابن هشام مغني اللبيب 1 / 184 ـ وابو حيان في البحر المحيط : ج 8 .
3) الزمخشري : الكشاف 4 / 61 سورة الواقعة .

المعـــارج 40 :

« فلا اقسم برب المشارق والمغارب انا لقادرون»

القيامـــة 1 :

« لا اقسم بيوم القيامة . ولا اقسم بالنفس اللوامة . ايحسب الانسان ان لن نجمع عظامه . بلى قادرين على ان نسوى بنانه »

التكويـــر 15 :

« فلا اقسم بالخنس . الجوار الكنس . والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس . انه لقول رسول كريـــم »

الانشقـــاق 61 :

« فلا اقسم بالشفق . والليـــل وما وسـق . والقمر اذا اتسق . لتركبن طبقا عن طبق »

البلـــد 9 :

« لا اقسم بهذا البلد . وانت حل بهذا البلد . ووالد وما ولد . لقد خلقنا الانسان فى كبد »

ولم يات فعل القسم فى القرآن كله ، مسندا الى الله تعالى بغير « لا » .

كما لم تات « لا » مع القسم مسندا الى غيره تعالـــى .

وهذا الاطراد يبعد احتمال ان تكون « لا » هي لام الابتداء ، اشبعت فتحتها فتولدت منها الف .

كما يبعد احتمال ان تكون (لا) زائدة والمعنى : اقسم ، كما اختار ابو حيان . وقد قالوا هم انفسهم ان زيادة الشيء تفيد اطراحه ، ولا يمكن اطراح « لا » وما من آية اسند فيها فعل القسم الى الله سبحانه وتعالى ، لم يجيء بعد « لا » .

فهل هي مزيد توطئة للنفى وتاكيد له ؟ قالوا ان ادخال لا النافية على فعل القسم جاء فى كلام العـرب واشعارهم كقول امرىء القيس :

فـلا وابيـك ابنـة العامـــري
لا يدعـى القـوم انـي افـــر

وقال غوبة بن سلمى :

الا نـادت امامـــة باحتمـــال
لتحزننـي فـلا بـك مـا ابالـي

وقال آخـــر :

* فلا وابى اعدائها لا اخونها *

وجعلوا منه قوله تعالى :

« لئلا يعلم اهل الكتاب الا يقدرون على شيء من فضل الله » الحديد 29 .

والآية ، كما لاحظ ابن هشام ، فى سياق النفي. وكذلك كل الشواهد الشعرية التي ذكروها ، سياقها النفي . وليس الامر كذلك فى آيات « لا اقسم » وكلها فى سياق الاثبات والتقرير .

ونفهم ان تاتي « لا » فى سياق النفى فتؤكده ، اما ان تاتي لتؤكد الاثبات بالنفى فذلك ما يبدو غريبـا حقا !! والقسم هو اقوى اساليب التاكيد ، ولا يمكـن تاكيده بنفيه ، لان النفى نقيض التاكيد ، فاذا نفيت القسم انتقض بنفيك اياه . والجمع بينهما اولـى بأن يسقطهما كليهما على القاعدة الاصوليـة فى الدليليـن تعارضا فتساقطا .

افلا يهدينا تدبر سياق آيات « لا اقســم » لله تعالى ، الى ان « لا » تنفي حاجته تعالى الى القسم ؟

بلى ، وانما نحتاج نحن البشر الى ان نقسم دفعا لمظنة الاتهام وازاحة للشك . ومن ثم نلمح سر العربية اذ تستعمل هذا الاسلوب حيث تنتفـي الحاجـة الى القسم ، فى مواضع الثقة واليقين .

ومن نفى الحاجة الى القسم ياتي التاكيد والتقرير، لانه يجعل المقسم او المقسم عليه ، فى غنـى بالثقة واليقين عن الاقسام . والسر البياني لهذا الاسلـوب يعتمد فى قوة اللفت على ما يبدو بين النفى والقسم من مفارقة مثيرة لاقصى الانتباه . وما نـزال فى مألوف استعمالنا نؤكد الثقة بنفى الحاجة معها الى قسـم ؛ فنقول لمن تثق فيه : لا تقسم او : من غيـر يميـن . مقررا انه موضع ثقتك فلست بحاجة الى ان يقسم لك. كما تقول لصاحبك : لا اوصيك بفلان ، تاكيدا للتوصية بنفى الحاجة اليها .

واذا اكتفى بهذا القدر مما هـدى اليه البيـان القرآني من اسرار لغتنا فى الحرف لا يغني عنه سواه، وفي الكلمة لا تقوم مقامها اخرى غيرها ، وفى النظم لا تعرف العربية ما يدانيه بلاغة وبيانه .

ارجو الا يظن بي انني اجحد جهود سلفنا الصالح فيما اصلوا من علوم العربية والاسلام ، فالحق انـي

اشعر بالقصور والخجل تجاه ما تركوا لنا من عطاء سخي باذل ، كان لنا على مر العصور وتتابع الاجيال ذخيرة ومددا . وما ارانا تكون خلف صدق لهم اذا لم نحمل امانة وجودنا ، فنضيف الى تراثهم ما نتركه للاجيال من بعدنا عطاء وميراثا .

وقد يشق علينا ان نضيف الى ما اصلوه من علوم العربية والاسلام جديدا ذا بال ، الا ان يفرغ **المتخصصون منا في الدراسات العربية والاسلامية لتدبر القرآن الكريم نجتلي من اسراره ودلالاته ما يكون قد غاب عن سلفنا الصالح وهم عاكفون على تاصيل قواعد علومهم ، بالكتاب الاكبر الذي يظل على امتداد الزمان والمكان سر وجودنا وذخر حياتنا .**

وبعد فما ازعم ، وما ينبغي لي ، انني فيما اجتليت واجتلي من اسرار العربية في البيان القرآني قد شارفت افقه العالي .

ولكنها محاولة ابتغي بها ثواب المسعى وشرف الوسيلة والقربى ، بطول المكوث على خدمة القرآن الكريم ، وجهد التدبر لاسرار بيانه المعجز .

وينفد القول ولا تنفد كلمات ربي :

« قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا . »

صدق الله العظيم

د. عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطىء)
استاذ الدراسات القرآنية بجامعة القرويين

(تصويبات)

وقعت اخطاء مطبعية في هذا البحث نستدركها فيما يلي : 1) يتحدى (بدل ويتحدى) : ص 12 سطر 4 ـ عمود 1 ـ 2) في مثل آية (بدل في آية) : ص 13 ـ س 20 ـ ص 1 ـ 3) يؤنس (بدل يومىء) : نفس الصفحة ـ س 26 ـ 4) يحبسه (بدل يحسبه) : ص 15 ـ س 5 ـ ص 2 ـ 5) لاحتمل (بدل لا يحتمل) : ص 16 ـ س 4 ـ ص 2 ـ 6) وعسر (بدل وعر) : ص 18 ـ س 30 ـ ص 1 ـ 7) وطي (بدل وعا) : ص 19 ـ س 25 ـ ص 2 ـ 8) ثلث او رباع (بحذف ما بعدها وهو : بحيث لا يختلف رجل عن رجل ..) : ص 21 ـ س 28 ـ ص 1 ـ ⊙ لا يتجاوزون (بدل لا يتجاوز) : ص 21 ـ س 30 ـ ص 1 10) من لا يفرق (بدل من يفرق) : ص 21 ـ س 31 ـ ص 1 ـ 11) التخيير بين (بدل التفاهم جميعا على) : ص 21 ـ س 1 ص2 12) الواحد الفا (بدل الواحد الف) : ص 22 ـ س 10 ـ ص 1 ـ 13) 105 (بدل 109) : ص 19 ـ ص 2 و 5 (بدل 50): س 22 ـ ص 2 و 100 (بدل 60) : س 26 ـ ص 2 (ص 23 ـ 14) حس (بدل وحس) : ص 24 ـ س 28 ص 2 ـ 15) وهوالـه (بدل وهو انه) : ص 25 ـ س 6 ـ ص 2 ـ 16) صيغة (بدل صيغة) : ص 25 ـ س 26 ـ ص 2 ـ 17) وان كان كذبا في الواقع حذفت بعد « عليه » : ص 28 ـ س 14 ـ ص 1 ـ 18) الزوجية (بدل الزوجة) : ص 28 ـ س 14 ـ ص 2 ـ 19) الا ان (بدل ان) : ص 29 ـ س 15 ـ ص 1 ـ 20) مرهقا (بدل مرهقة) : ص 29 ـ س 25 ـ ص 1 ـ 21) الا جاء (بدل لم يجيء) : ص 36 ـ س 27 ـ ص 1 ـ 22) مزيدة (بدل مزيد) : ص 36 ـ س 28 ـ ص 1 ـ 23) غوية (بدل غوية) : نفس الصفحة ـ س 33 ـ ص 1 .

من خصائص اللغة العربية ...

الأستاذ أحمد عبد الرحيم السايح - جامع الأزهر

خصائص ومميزات

للغة العربية خصائص ومميزات يزت بها غيرها لا تدانيها فيها لغة من اللغات فانت تستطيع ان تصنع من مفرداتها المانوسة قطعا ، ما تسحر به الالباب وتاخذ بالافهام وتتالق بالعقول فى عالم السمو والسحر والابداع .

وعناية العربية بجمال الالفاظ وحسنها ، لا لذات الالفاظ . وانما اهتماما من اللغة العربية بالمعنى . وذلك حتى يقع القول من نفس السامع الموقع المرجو الذى يهيىء له الحالة النفسية التى تحفزه الى الحركة والعمل وتبعث به الى المقصود فى ثوب مفوف ووسام لامع جذاب اخاذ ساحر .

1) الدلالة المعنوية

ولقد ثبت من المقارنة بين اللغات ان **اللغة العربية من اكثر اللغات دلالة معنوية** بل ان الكثير من الفاظ العربية قد فقد الدلالة الحسية .

قال جورجي زيدان : فالفعل «قضى» معناه «حكم» والاصل فيه القطع الحسي والفعل «عقل» معناه «فهم» وهو مأخوذ من عقل الناقة اي ربطها والفعل ادرك ، الاصل فيه البلوغ الحسي فيقال : فلان ادرك القطار اي لحقه ؛ والفعل «بلغ» وضع اصلا للدلالة على الوصول الحسي فى المكان والزمان، بل ان الاصل فى معنى الفصاحة قولهم : فصح اللبن اذا ذهبت رغوته ، ثم قيل : فصح بمعنى وضح و «الراي» اصله من «راى» اي شهد بعينه

وفى العربية ابنية وصيغ وقوالب دالة على معان وصفات واحوال . فما كان على «فعلان» (بالتحريك) دل على الحركة والاضطراب كالنزوان ، والغليان والضربان والهيجان . وما كان على «فعلان» (بسكون العين) دل على صفات تقع من احوال كالعطشان والغرثان والشبعان والريان والغضبان ، وما كان على «افعل» دل على صفات بالالوان نحو : ابيض واحمر واسود واصفر واخضر، وكذلك العيوب تكون على افعل نحو ازرق واحول واعور واقرع واقطع واعرج واخيف وتكون الادواء على « فعال » كالصداع والزكام والسعال والخناق والكباد .

والاصوات اكثرها على هذا كالصراخ والنباح والضباح والرغاء والثغاء والخوار ، وفصل ناخر منها على «فعيل» كالضجيج والهرير والهدير والصهيل والنهيق والزئير والغضيب والنعيق والنعيب والخرير والصرير . وحكاية الاصوات على «فعللة» كالصرصرة والقرقرة والغرغرة والقعقعة والخشخشة واطعمة العرب على «فعيلة» كالسخينة والنفيتة والمريرة والنقيعة والعقيقة ، واكثر الادوية على « فعول » كاللعوق والسعوط والوجور واللدود والذرور والنطول ، واكثر العادات فى الاستكثار على « مفعال » نحو مطعان ومطعام ومضراب ومضياف ومكثار ومهذار وامراة معطار ومذكار ومئناث ومئشام،

وصيغ الافعال واوزانها في اللغة العربية عامل من عوامل ثروة اللغة وقدرتها على الدلالة على فروق وظلال تضاف الى المعنى الاصلي ، دون زيادة في اللفظ ومع الاحتفاظ بطابع التركيز والدقة قال الثعالبي في الاكثر الاغلب (فعل) يكون بمعنى التكثير كقوله عز ذكره « وغلقت الابواب » وقوله ، يذبحون ابناءكم» و (فعل) يكون بمعنى (افعل) نحو خبر واخبر وكرم واكرم ونزل وانزل ويكون مضافا له نحو افرط اذا جاوز الحد وفرط اذا قصر قال الشاعر:

لا خير في الافراط والتفريط
كلاهما عندي من التخليط

وقلت في كتاب المبهج : اياك والافراط المل ، والتفريط المخل .

و (افعل) يكون بمعنى فعل نحو اسقى وسقى وامحضه الود ومحضه ، وقد يتضادان نحو نشط العقدة اذا شدها وانشطها اذا حلها .

(وفاعل) يكون بين اثنين نحو : ضاربه وبارزه وخاصمه وحاربه وقاتله ويكون بمعنى فعل كقوله عز وجل ، قاتلهم الله اي قتلهم .

(وتفاعل) يكون بين اثنين وبين الجماعة نحو تجادلا وتناظرا وتحاكما ، ويكون من واحد نحو تراءى له ويكون بمعنى اظهر نحو : تغافل وتجاهل وتمارض وتساكر اذا اظهر غفلة وجهلا ومرضا وسكرا وليس بغافل ولا جاهل ولا مريض ولا سكران .

(وتفعل) يكون بمعنى فعل نحو تخلصه اذا خلصه كما قال الشاعر :

تخلصني من غفلة الغي منعما
وكنت زمانا في ضمان اساره

وكما قال عمرو بن كلثوم :

تهددنا واوعدنا رويدا
متى كنا لامك مقتوينا ؟

ويكون بمعنى التكلف نحو تشجع وتجلد وتحكم ويكون لاخذ الشيء نحو : تادب وتفقه وتعلم ويكون تفعل بمعنى: فعل نحو تعلم بمعنى اعلم كما قال القطامي :

تعلم ان بعض الشر خير
وان لهذه الغمم انقشاعا

(واستفعل) يكون بمعنى التكلف نحو استعظم اي تعظم واستكبر اي تكبر ويكون استفعل بمعنى الاستدعاء والطلب نحو استطعم واستسقى واستوهب ويكون بمعنى فعل نحو استقر اي قر ويكون بمعنى صار ، نحو استنوق الجمل واستنسر البغاث .

(وافتعل) يكون بمعنى فعل نحو اشتوى اي شوى واقتنى اي قنى اي كسب، ويكون لحدوث صفة نحو : افتقر وافتتن واما انفعل فهو فعل المطاوعة نحو : كسرته فانكسر وجبرته فانجبر وقلبته فانقلب قال ابن جني : « فاذا رايت العرب اصلحوا الفاظها ـ العربية ـ وحموا حواشيها وهذبوها وصقلوا غروبها وارهفوها فلا ترين ان العناية اذ ذاك انما هي بالالفاظ ؛ بل هي عندنا خدمة للمعاني وتنويه وتشريف ونظير ذلك اصلاح الوعاء وتحسينه وتركيته وتقديسه وانما المبغى بذلك منه الاحتياط لنموعى عليه وجواره بما يعطر بنشره ولا يعر جوهره كما قد تجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه ويغض منه كدرة لفظه وسوء العبارة عنه .

وذلك ان العرب كما تعنى بالفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها وتلاحظ احكامها بالشعر تارة وبالخطب اخرى وبالاسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها . فان **المعاني اقوى عندها واكرم عليها واعظم قدرا في نفوسها** فاول ذلك عنايتها بالفاظها فانها لما كانت عنوان معانيها وطريقا الى اظهار اغراضها ومراميها اصلحوها ورتبوها وبالغوا في تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك اوقع لها في السمع واذهب بها في الدلالة على القصد .

فكان العرب انما تحلي الفاظها وتدبجها وتشيها وتزخرفها عناية بالمعاني التي وراءها وتوصلا بها الى ادراك مطالبها وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا فاذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يعتقد هذا في الفاظ هؤلاء القوم التي جعلت مصائد واشراكا للقلوب وسببا وسلما الى تحصيل المطلوب، عرف بذلك ان الالفاظ خدم للمعاني والمخدوم لا شك اشرف من الخادم والاخبار في التلطف بمذوبة الالفاظ الى قضاء الحوائج اكثر من ان يؤتى عليها او يجشم للحال تعب بها .

واعلم انه لما كانت **الالفاظ للمعاني ازمة وعليها ادلة واليها موصلة** ، وعلى المراد منها محصلة عنيت

العرب بها فأولتها صالحا من تثقيفها واصلاحها (1). وشيء ءاخر يجعل اللغة العربية اكثر مرونة في الواقع من غيرها . وهو انها اكثر **اللغات قبولا للاشتقاق . والاشتقاق باب واسع تستطيع به اللغة ان تؤدي معاني الحضارة** والاشتقاق في العربية يقوم بدور لا يستهان به في تنويع المعنى الاصلي وتلوينه اذ يكسبه خواص مختلفة بين طبع وتطبع ومبالغة وتعدية ومطاوعة ومشاركة ومبادلة مما لا يتيسر التعبير عنه في اللغات الآرية مثلا الا بالفاظ خاصة ذات معان مستقلة ، وصيغ الالفاظ العربية تفرق تفرقة واضحة بين الجواني والبراني وبين ما هو حركة في النفس وما هو حركة في الجوارح . العربية تفرق مثلا بين الكبر والتكبر والعلم والتعلم والفقه والتفقه .

وقد التفت المستشرق الفرنسي كرادوفو الى هذه الظاهرة فلم يسعه الا ان ينوه بها في كتابه عن الغزالي فقال « لقد ميز الغزالي بين الكبر الداخلي والكبر الخارجي . الداخلي هو استعداد في النفس والخارجي ناتج من افعال الجوارح واللفظ الفرنسي الذي يدل على معنى الكبر هو Orgueil اما التكبر فاولى ان يكون مرادفه الفرنسي Superbe .

ولاحظ كارا دوفو ايضا ان هذه **الفروق المعنوية الدقيقة التي تحملها الفاظ اللغة العربية** ليس من اليسور نقلها في لفظ واحد الى اللغات الاخرى . وخلص من هذه الملاحظة الى التنويه بما **تنطوي عليه العربية من قدرة ذاتية على التحليل الفلسفي العميق** ما دام ان احداث تغيير طفيف في بنية اللفظ العربي يسمح لتلك اللغة بأن تميز بين الحالة النفسية وبين العادة البدنية التي تطابقها . ولا نزاع في ان **منهج اللغة العربية الفريدة في الاشتقاق قد زودها بذخيرة من المعاني لا يسهل اداؤها في اللغات الاخرى في نطاق التركيب الجواني الذي هو شيمة الاسلوب العربي الاصيل** وقد لاحظ السيوطي هذه الزيادة في المعنى المشترك حين عرف الاشتقاق بانه « اخذ صيغة من اخرى مع اتفاقهما معنى ومادة وهيئة تركيب ليدل بالثانية على معنى الاصل بزيادة مفيدة لاجلها اختلفا حروفا او هيئة .

وجلي : **ان هذه الطريقة في توليد الالفاظ بعضها من بعض تجعل من اللغة جسما حيا تتوالد اجزاؤه ويتصل بعضها ببعض باواصر قوية واضحة ، وتغني عن عدد ضخم من المفردات المفككة المنعزلة التي كان لابد منها لو عدم الاشتقاق ، وان هذا الارتباط بين الفاظ العربية** الذي يقوم على ثبات عناصر مادية ظاهرة وهي الحروف او الاصوات الثلاثة . وثبات قدر من المعنى سواء كان ماديا ظاهرة او مختفيا مستترا . **خصيصة عظيمة من خصائص هذه اللغة** تشعر متعلمها بما بين الفاظها من صلات حية تسمح لنا بالقول بأن ارتباطها حيوي وان طريقتها حيوية توليدية وليست آلية جامدة .

قال الدكتور عثمان امين : واذا اردنا مثلا على ثروة العربية بهذا الضرب من الاشتقاق والتصريف فلننظر الى كلام رجل من المشتغلين بالعلوم الطبيعية. فهو يرى في كلمة مثل « صهر » اي اذاب الجسم بالنار انه يستفاد لتأدية هذا المعنى بكلمات دقيقة من حالات الجسم تخالف غيرها من الحالات فنقول انصهر واستصهر وتصاهر ومنصهر ومصهور ، وفي العربية منهجا ءاخر مخالفا للغات الاخرى فان العربية **تدل بالحركات على المعاني المختلفة** . من غير ان تكون تلك الحركات اثرا لمقطع او بقية من اداة فيكون ذلك في وسط الكلمة واولها وءاخرها فهم يفرقون بالحركة بين اسم الفاعل واسم المفعول في مثل مكرم ومكرم وبين فعل المعلوم وفعل المجهول نحو : كتب وكتب وبين الفعل والمصدر في مثل علم وعلم وبين الوصف والمصدر في مثل فرح وفرح وبين المفرد والجمع في مثل اسد واسد وبين الفعل والفعل في مثل قدم وقدم وبين الاسم والاسم في مثل : سحور وسحور .

2 ـ العربية وفلسفة الاعراب

اللغة العربية : من اللغات العريقة المنبت الواسعة الافق اتسعت فاحاطت بأبعد انطلاقات الفكر وارتفعت حتى صعدت ارقى اختلاجات النفس .

ولقد زادتها مرونتها تبلورا وتفاعلا ونماء وقدرة على النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الذي تعيشه الانسانية في مسيرتها .

وكان لها عبر الزمن الاصالة الجاهدة المولدة المعطاءة . والميزات المطواعة المتطورة .

(1) الخصائص لابن جني الجزء الاول ص 225 ـ 228 . طبعة الهلال ـ مصر

وانك لتحس هذا في كلماتهـــا التـــي تمثـــل خطرات النفوس ونبضات القلوب وكل كلمـــة لها في الجملة مكان يحس بها المتكلم او تحس بها الكلمـــة نفسها .

ولهذا صارت ــ بفعل عوامل مختلفـــة ــ لغـــة حية بارزة ، ذات دلالة ووضوح ، وزادها متانة وابانة وافصاحا عن المعاني : الاعراب .

والعربية لغة تتوخى الايضاح والاصالة والاعراب احدى وسائلها لتحقيق هذه الغاية : غاية الايضـــاح والافصاح عن صلات الكلمات العربية بعضها ببعـــض وعن نظم تكوين الجمل بالحالات المختلفة لها .

وفي اللغات الخالية من الاعراب يعتمد اهـــل اللغة على القرائن وعلى اضافة كلمات الى الجملة لفهم المقصود من المعاني ولكن الاعتماد على القرائن ربمـــا لا يطرد ــ كما يقـــول صـــاحب الطـــراز ــ فاوجبت العربية التفريق بين الفاعل والمفعول والا وقع اللبس والابهـــام .

والاعراب : مصدر اعربت عن الشيء اذا اوضحت عنه . ويقال : فلان معرب عما في نفسه اي مبين له وموضح عنه ومنه : عربت الفرس تعريبا اذا بزغته . وذلك بأن تنسف اسفل حافره .

ومعناه : انه قد بان بذلك ما كان خفيا من امره لظهوره الى مرءاة العين بعد ما كان مستورا وبذلك تعرف حاله اصلب هو ام رخـــو واصحيـــح هـــو ام سقيم وغير ذلك .

واصل هذا كله قولهم : « العرب » وذلك لما يعزى اليه من الفصاحـــة والاعـــراب والبيان ومنه قولهم في الحديث « الثيب تعرب عن نفسها »

والمعرب صاحب الخيل العـــراب وعليه قـــول الشاعر :

ويصهل في مثل جوف الطـــوى
صهيـــلا تبيـــن للمعـــــرب

اي اذا سمع صاحب الخيل العراب صوته علم انه عربي ومنه : العروبة . والعروبة الجمعة وذلـــك ان يوم الجمعة اظهر امرا من بقية الاسبوع لما فيه من التاهب لها والتوجه اليها وقوة الاشعار بها قال الشاعر العربي القديم :

يوالم رهطا للعروبة صيمـــا

ولما كانت معاني السمين مختلفة كان الاعـــراب الدال عليها مختلفا ايضا . وكانه من قولهم : «عربت معدته» اي فسدت . كانها استحالت من حال الى حال ، كاستحالة الاعراب من صورة الى صورة.

الاعراب اذن مطلب العقل في اللغة ولذلك يرى بعض الباحثين والدراسين من علماء مقارنة اللغـــات ان **الاعراب ارقى ما وصلت اليه اللغات في الوضوح والابانة وهذه المرتبة قد بلغتها العربية الفصحى ، ولا يشاركها فيه من اللغـــات القديمـــة الا اليونانيـــة واللاتينية ، ولا يشاركها فيه من اللغات الحديثة الا الالمانية .**

اما اللغات الارية الحديثة ــ وتشمل معظم لغات اوربا الحديثة ــ فقد خلت من حالات الاعراب ولا مميز فيها بين الرفع والنصب والجر ، وانما يقوم مقامها الحاق ادوات خاصة بذلك معظمها من حروف الجر او بتقديم الالفاظ وتاخيرها مما لا يخرج عن الوضع الخارجي في المكان ، هذا في حين ان اللغة العربيـــة قد استلزمت من اول الامر ــ ما دام الاعراب مرعيا ــ وان يكون الفكر الواعي محددا للوضع الخارجي وان يكون النظر الى المعنى هو المبرر للتقديم والتاخير وتاكيد الاسناد ، وغيـــر ذلـــك الا تـــرى انـــك اذا سمعت : اكرم سعيد اباه ، وشكر سعيدا ابوه ، علمت برفع احدهما ونصب الاخر ، الفاعل من المفعول ولو كان الكلام نوعا واحدا لاستبهم احدهما من صاحبه .

فبالاعراب يعرف الخبر من الانشاء والمفعـــول من الفاعل وبه يتميز المضاف من المنعوت والمتعجب من الاستفهام والنعت من الحال الى غير ذلك .

وبالجملة : فتمير اغراض المتكلم عند السماع يكفي فيه الاعراب فالاعراب في مثل (ما احسن زيد) بفتح نون احسن وضم دال زيد كانت « ما » نافيـــة وانت تريد ان زيدا لم يحصل منه احسان .

واذا قلت (ما احسن زيدا) بفتح النون والدال كانت « ما » تعجبية وانت تريد ان شيئا عجيبا جعل زيدا حسنا .

واذا قلت (ما احسن زيد) بضم النون وكسر الدال ، كانت « ما » استفهامية وانت تريد معرفـــة اي شيء حسن في زيد علمه ام ادبه ام اخلاقه .. الخ ..

وقد يفرقون بين المعاني بالحركات وغيرها فبالحركة يقولون : «مفتح»للالة بكسر الميم وفتح التاء و«مفتح» بفتح الميم لموضع الفتح ، وللفتح نفسه .

وقد يفرقون بين المعاني بغير الحركات كالتمييز بتاء التانيث وعدمها فيقولون امراة طاهر بدون التاء اذا ارادوا طاهرة من الحيض لان الرجل لا يشاركها فيه واذا ارادو طهارتها من العيوب الخلقية قالوا امراة طاهرة لان الرجل يشاركها فيها فيحتاجون الى التمييز بينهما ومثله امراة قاعد اذا اثقلها الحبل وقاعدة من القعود اي جالسة لان الرجل يشاركها فيه فيقال : رجل قاعد . ويروى ان رجلا دخل على امير المؤمنين علي ـ كرم الله وجهه ـ فقال له من غير اعراب : « قتل الناس عثمان » فقال له امير المؤمنين « بين الفاعل من المفعول رض الله فاك » .

وبنت ابي الاسود الدؤلي وقفت مرة تشاهد السماء وتتعجب لجمالها . فقالت لابيها « ما احسن السماء » فقال ابوها : نجومها ، فقالت « ما عن هذا اسال وانما انا اتعجب » فقال لها اذن قولي « ما احسن السماء » وافتحي فاك . وسمع ابو الاسود قارئا يقرأ قوله تعالى «ان الله بريء من المشركين ورسوله» بكسر اللام في رسوله فاكبر ابو الاسود ذلك وقال : عز وجه الله ان يبرأ من رسوله .

وكان هذا سببا في وضع علامات الاعراب للمصحف بامر زياد .

ويروي ابن قتيبة أن رجلا من الخوارج مدح رئيسهم شبيبا بن يزيد الخارجي بقصيدة في بيت منها :

ومنا سويد والبطين وقعنب
ومنا امير المؤمنين شبيب

فاخذه عبد الملك بن مروان وساله وهو يحاكمه عن هذا البيت فقال لم اقل هذا بل قلت : ومنا امير المؤمنين شبيب بفتح الراء في امير اي يا امير المؤمنين فامر بتخلية سبيله .

وقد اشار ابن خلدون في مقدمته الى الاعراب عند العرب فقال : ان كلامهم اي العرب ـ واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الاعراب والابانة الا ترى ان قولهم : زيد جاءني مغاير لقولهم : جاءني زيد . من قبل ان المتقدم منهما هو الاهم عند المتكلم .

فمن قال : زيد جاءني افاد ان اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند وكذلك التعبير عن اجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول او مبهم او معرفة وكذا تاكيد الاسناد على الجملة كقولهم : زيد قائم وان زيدا قائم وان زيدا لقائم متغايرة كلها في الادلة وان استوت من طريق الاعراب فان الاول العاري عن التاكيد انما يفيد الخالي الذهن والثاني المؤكد يفيد المتردد والثالث يفيد المنكر .

وكثير من كواكب الاستشراق وعلماء اللغات، نوهوا بخصيصة الاعراب في العربية قال العلامة « بركلمان » عند حديثه عن لغة الشعر العربي :

لقد تميزت لغة الشعر العربي هذه بثروة عظيمة من الصور النحوية وبلغت من حيث دقة التعبير عن علامات الاعراب والنحو ذروة التطور في اللغات السامية .

وقال البحاثة : « لوي مسينيون » في حين **ان اللغة السريانية قد نقلت اجروميتها عن اللغة اليونانية نقلا صرفا ، استطاعت لغة الضاد ان تشيد بناء ضخما من الاعراب يضع امام الابصار مشهدا فلسفيا ذا روعة واصالة .**

فاللغة العربية لها من الخصائص لافهام المعاني الدقيقة والمعاني الثانوية التي تصل الى نهاية الابداع وكمال الصنع ، ما يملك على السامع مشاعره ويستخدم حواسه ويدفعه حيث يشاء .

والاعراب في ذاته فلسفة لغوية تضع كل شيء في مكانه اللائم له وتعطي كل ذي حق حقه .

فلا ابهام ولا لبس ولا غموض ولا تعقيد . بل وضوح وابانة وهدى وافصاح .

3) العربية والحركة

اللغة العربية من اعرق اللغات منبتا واكثرها رسوخا واقواها جلادة واشدها بنيانا وفي ظل الحضارة الاسلامية صارت ابعد اللغات مدى واوسعها افقا واقدرها على النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الدائم الذي تعيشه الانسانية .

واستطاعت العربية في رحاب عالمية الاسلام ان تتسع لتحيط بابعد انطلاقات الفكر وترتفع حتى تصعد ارقى اختلاجات النفس .

ولقد زادتها مرونتها وقدرتها على التفوق تباورا وتفاعلا ونماء واعطتها طاقة خلاقة وحياة مدهشة .

وكان لحركيتها التي امتازت بها : الاصالة الجاهدة المولدة المعطاءة والميزات المطواعة المتطورة ولم تعد حروفا وقوالب فارغة يملأها الفكر فتحمله ، بل انها بعض الانسان المسلم بعض كينونته ، هو ينبوعها وهي مجراه وقلنا انها بعض الانسان المسلم لانها لغة القرءان الكريم وانك لتجد الاحساس الدقيق متمثلا في مفرداتها ويتجلى هذا في التركيب ، فكل كلمة لها في الجملة مكان يحس بها المتكلم وان شئت بعبارة اخرى فقل : تحس بها الكلمة نفسها .

وتكاد تمثل كلماتها خطرات النفوس وتصور الفاظها مشاهد الطبيعة تكاد تتجلى معانيها في اجراس الالفاظ وتتمثل في نبرات الحروف كانما كلماتها نبضات القلوب ورحيق الحياة ومشاعل القوة .

فليس هناك معنى من المعاني ولا فكر من الافكار ولا عاطفة من العواطف ولا نظرية من النظريات تعجز اللغة العربية ، عن تصويرها بالاحرف والكلمات تصويرا صحيحا هي المقاطع بارز القسمات .

والحياة في العربية حياة خلاقة مبدعة ذات عبقرية خاصة وكلماتها تنعم بهذه الحياة في الحين الذي نجد الكلمات في سائر اللغات ادوات جامدة لا يعرف فيها معنى الحياة الا بعد ان تجتمع منها الى بعضها وتؤلف عبارة .

واذا كانت بقية اللغات ادوات للتعبير متى بلغتها فقد بلغت الغاية القصوى وانتهت مهمتها فان اللغة العربية لا تكتفي بهذه الغاية بل هي تريد ان يكون التعبير جميلا وتريد ان يمتد هدفها الى اكثر من ذلك فيتحول الى فكرة مستمرة للجمال والذوق والذكاء فكرة تندفع بصورة تلقائية وتتوالد من نفسها لانها في تفاعلها وتطورها كانها كائن حي يذهب ويجيء وتموج فيه العواطف والاحاسيس ، وكلماتها الحية ذات الاصول الثابتة تتفرع منها المعاني المتقاربة فمثلا: النون والباء اذا اجتمعتا كانتا الجذر في مختلف معاني البروز انظر الى فروع هذا الجذر فتجد ان معنى :

نبت : برز من الارض ، ونبط : اخرج ماء البئر

ونبع : خرج من العين ، ونبغ : خرج وظهر

الى ءاخر ما هناك من الكلمات التي تتشابه في الاصل والعربية في عبقريتها لم تكتف بهذا المنطق الذي هو في حد ذاته قاعدة بل عمدت الى اكثر من ذلك وها هي ظاهرة من ظواهر حياتها حتى في الكلمات فهي تتساهل اشمل ما يكون التساهل حيال من يتكلمها كما يفعل الرجل الشهم ازاء صاحبه تماما ، خذ مثلا كلمة « غضروف » ان اجتماع الغين والضاد يثقل احيانا على اللفظ وتناسق الحروف في الكلمة يجعلها سريعة الانفصال عن اخواتها في العبارة وفي السرعة ، فماذا تفعل العربية لتتلافى هذا الامر انها تتساهل معك وتقول لك اذا لم تستطع ان تلفظ كلمة « غضروف » فاللفظ «فرضوف» فانها هي نفسها ، فهي لا تتمنت الى الدرجة التي تشعر بالبغض لها ، بل هي تاخذك بالحسنى .

وكان اللغة العربية بهذه الحركية والحياة تريد ان تدفع بابناء الاسلام الى المجد دفعا وتصل بهم في ظل القرءان الكريم الى ذروة ما قدر لهم من نجاح وعز وسؤدد ، وتغرس فيهم حب العمل والحركة والاعتماد على ان لا امل لهم الا في انفسهم وتبعث في قلوبهم النشاط وتقشع السكون والاستكانة فلا ينبغي ان تكون لغة القرءان متحركة حية واهلها جامدون ساكنون .

ولقد اعرب عن الحياة في اللغة العربية العالم النحوي ابو الفتوح عثمان بن جني فوضح القول عن الكلام واللغو وانهما يدلان على الحركة والسرعة والقوة .

وذكر ان معنى « ق و ل » اين وجدت وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض وتاخره عنه انما هو للخفوف والحركة وجهات تراكيبها الست مستعملة كلها لم يهمل شيء منها وهي :

ق و ل ، ق ل و ، و ق ل ، و ل ق ، ل ق و ، ل و ق .

الاصل الاول : « ق و ل » وهو القول وذلك ان الفم واللسان يخفان له ويقلقان ويمدلان به وهو بضد السكوت الذي هو داعية الى السكون الا ترى ان الابتداء لما كان ءاخذا في القول لم يكن الحرف المبدوء به الا متحركا ولما كان الانتهاء ءاخذا في السكوت لم يكن الحرف الموقوف عليه الا ساكنا .

الاصل الثاني : « ق ل و » منه القلو حمار الوحش وذلك لخفته واسراعه قال العجاج :

تواضح التقريب قلوا مغلجا

ومنه قولهم : قلوت البسر والسويق فهما مقلوان وذلك ان الشيء اذا قلي جف وخف وكان اسرع الى الحركة والطف قال :

قد عجبت مني ومن بعيليا
لما راتني خلقا مقلوليا

اي خفيفا للكبر طائشا

قال :

وسرب كعين الرمل عوج الى الصبا
بواعف بالحادي حور المدامع

سمعن غناء بعد ما نمن نومة
من الليل فاقلولين فوق المضاجع

اي خففن لذكره فزال عنهن نومهن واستلقاؤهن على الارض .

الاصل الثالث : « و ق ل » منه الوقل للوعل ، وذلك لحركته وقالوا : توقل في الجبل اذا صعد فيه وذلك لا يكون الا مع الحركة والاعتمال .

قال ابن مقبل:

عودا احم القرا ازمولة وقلا
ياتي تراث ابيه يتبع القذفا

الرابع : « و ل ق » قالوا ولق يلق اذا اسرع قال :

جاءت به عنس من الشام تلق

اي تخف وتسرع وقريء «اذ تلقونه بالسنتكم» اي تخفون وتسرعون .

الخامس : « ل و ق » جاء في الحديث لا آكل من الطعام الا مالوق لي .

اي ما خدم واعملت اليد في تحريكه وتلبيقه حتى يطمئن وتضام جهاته ومنه اللوقة للزبدة وذلك لخفتها واسراع حركتها .

السادس : « ل ق و » منه اللقوة للعقاب ، قيل لها ذلك لخفتها وسرعة طيرانها قال :

كاني بفتخاء الجناحين لقوة
دفوف من العقبان طاطات شملال

ومنه اللقوة في الوجه والتقاؤهما : ان الوجه اضطرب شكله فكانه خفة فيه وطيش منه وليس له مسكة الصميم ووفور المستقيم ومنه قوله :

وكانت لقوة لاقت قبيصا

واللقوة الناقة السريعة اللقاح وذلك انها اسرعت الى ماء الفحل فقبلته ولم تنب عنه نبو العاقر .

واما « ك ل م » فهذه ايضا حالها وذلك انها حيث تقلبت فمعناها الدلالة على القوة والشدة والمستعمل منها اصول خمسة وهي : ك ل م ، ك م ل ، ل ك م ، م ك ل ، م ل ك واهملت منه ل م ك فلم تات في ثبت .

فمن ذلك الاصل الاول «ك ل م» منه الكلم للجرح وذلك للشدة التي فيه وقالوا في قوله تعالى: «دابة من الارض تكلمهم» قولين احدهما من الكلام والآخر من الكلام (بضم الكاف) اي تجرحهم وتاكلهم وقالوا : الكلام (بضم الكاف) ما غلظ من الارض وذلك لشدته وقوته ، وقالوا رجل كليم اي مجروح وجريم قال :

عليها الشيخ كالاسد الكليم

الثاني : « ك م ل » من ذلك كمل الشيء وكمل فهو كامل وكميل وعليه بقية التصرف والتقاؤهما : ان الشيء اذا تم وكمل كان حينئذ اقوى واشد منه اذا كان ناقصا غير كامل .

الثالث : « ل ك م » : منه اللكم اذا وجات الرجل ونحوه ولا شك في شدة ما هذه سبيله انشد الاصمعي :

كان صوت جرهما تساجل
هاتيك هاتا حتنى (2) تكابل

لدم العجى تلكمها الجنادل

(2) حتنى : اي مستوية

فالحكمة : كلمة ثقافية جليلة وهي كلمة عصامية نشأت وارتفعت من اصل متواضع اصلها من اربطة الدواب ، ان الحكمة جاءت من « الحكمة ــ وزان السمكة ــ وهي جزء من لجام الفرس : الجزء المحيط بالحنك من اللجام قالوا ــ العرب الاقدمون « حكمت الفرس واحكمته » ــ من باب ضربته وادبته بمعنى وضعت الحكمة في فمه ، ووضعك الحكمة في فم الفرس يعني سيطرتك عليه ، ومن هنا صار «الاحكام» وزان الاحسان يعني التوثيق والاتقان ، وصار «الحكم» وزان اللطف يعني السيطرة ، و«الحاكم» يعني المسيطر والامر والسلطان ، ثم اشتق من هذه المادة «التحكم» وهو تكلف الحكم او التعسف فيه وبعد ان ثبت هذا المعنى للحاكم اشتقوا منه « المحاكمة » فقالوا : «حاكمت الرجل» بمعنى خاصمته الى الحاكم ، و«تحاكم الرجلان» اليه بمعنى تخاصما اليه « فحكم بينهما » اي اصدر حكمه فيهما ، ومن هنا صار «الحكم» يعني القضاء اي الفصل بين «المتحاكمين» ايضا ومن هنا اشتقت «المحكمة» وهي دار «الحكم» او دار «المحاكمة» او دار «التحاكم او الاحتكام» ، وصار الحاكم يعني القاضي وهكذا اصبح للحاكم معنيان : احدهما : الامر المسيطر ، والثاني القاضي والقاضي غير القاضي الشرعي ، يسمى في العراق «الحاكم» والجمع «الحكام» وبعد ان اخذت الكلمة معنى القضاء اصبح من السهل اشتقاق «الحكم» ــ وزان القلم والتحكيم منها ، كذلك اصبح للتحكيم نفس المعنيين اي التسليط وطلب الراي فقالوا مثلا : حكم الرجل عاطفته او عقله في المسألة بمعنى سلط عاطفته عليها او عرضها على عقله للوصول الى راي فيها ، وقالوا : حكمناه في الخلاف بمعنى طلبنا حكمه فيه او جعلناه حكما فيه واستعمل عرب الجاهلية (الحكومة) بمعنى طلبنا حكمه فيه او جعلناه حكما فيه واستعمل عرب الجاهلية (الحكومة) بمعنى : « حكم الحكم » فقال شاعرهم :

ما انت بالحكم الترضى حكومته

ولكننا لا نستعمل «الحكومة» الآن الا بمعناها السياسي المعروف .

ولما كان الناس انما «يحتكمون» الى ذي عقل وفطنة فقد اصطبغ «الحكم» وزان الشكر ــ بهاتين الخصلتين ، اي العقل والفطنة بالاضافة الى معنييه السابقين الامرة والقضاء وقد جاء في القرءان : « وءاتيناه الحكم صبيا » اي ءاتيناه الحكمة

ومن الحكم بمعنى الحكمة اشتقوا « الحكيم » مثل اشتقاق الطبيب من الطب واللطيف من اللطف ، والنبيل من النبل وبسبب ازدحام المعاني على كلمة «الحكم» اختصت لفظة الحكيم بمعنى الحكمة وبقيت « الحاكم » تعني الامر او القاضي ولا تعني الحكيم خلافا للامر والامير والفاضل والفضيل والجاهل والجهول التي تشترك كل واحدة منها في معنى صنوها .

وقد كثر استعمال صيغة « الحكمة » لمعنى الحصافة والفطنة لانها ابين من الغرض من لفظة « الحكم » المزدوجة المعنى ، التي كانت ما تزال تستعمل في كلا المعنيين عند ظهور الاسلام وهكذا زال معنى الحصافة من الحكم والحصيف من الحاكم بدافع من الرغبة في اجتناب اللبس فتخصص معناها في التسلط والقضاء كما زال معنى الامرة من «الحكمة» و«الحكيم» فاختص معناها بالحصافة ولما كانت المحاكمة تتطلب مناقشة القضايا وتمحيصها ، فقد صارت هذه الكلمة تعني بالاضافة الى ما تقدم نفاذ الفكر وسداد المنطق فقالوا : « فلان قوي المحاكمة » اي ثاقب البصيرة في تمحيص المسائل العقلية دون ان يكون للامر علاقة بالقضاء بين المتحاكمين من الناس .

وفي العهد الاسلامي اطلقت « الحكمة » على الفلسفة وما هو بسبيلها من العقلانيات ثم اطلقت « الحكمة » على الطب وسمي الطبيب حكيما وظاهر ان سبب ذلك هو ان الكثيرين من « الحكماء » ــ اي الفلاسفة زاولوا الطب على ذلك العهد مثل الكندي والخيام وغيرهما .

ولا باس ان نورد هنا مثلا كان شائعا في العراق. يوم كان الطبيب يسمى حكيما هو قولهم : « لا سلط الله عليك حاكما ولا حكيما » ولا زال يستعمل في صعيد مصر .

وهكذا تعددت مناحي تطور هذه الكلمة فصار لها نشاطها الخلاق في ميادين السياسة والادارة والقضاء والفلسفة والطب بالاضافة الى معناها الثقافي العام .

هذه هي الحياة في اللغة العربية حياة جعلتها اكثر مرونة من غيرها من اللغات فانت ترى انها اكثر

اللغات قبولا للاشتقاق ، وجلي ان طريقة العربية في توليد الالفاظ بعضها من بعض جعلت من اللغة جسما حيا تتوالد اجزاؤه ، ويتصل بعضها ببعض بأواصر قوية واضحة وهذا الارتباط بين الفاظ العربية الذى يقوم على ثبات عناصر اصيلة خصيصة عظيمة تسمح لنا بالقول بأن ارتباطها حيوي وان طريقتها توليدية .

فالعربية بحيويتها المدهشة لم تعجز ولم تضق بكل ما ادركه الانسان من علم وثقفه من صناعة ، والعربية لغة القرءان الكريم ، القرءان الذى حفظها رغم ما مر بها من عصور الركود والجمود وما فتئت في ظل القرءان تفيض بالقوة والانطلاق .

(للحديث بقية)

المراجع

(1) الخصائص لابن جنى طبعة الفجالة بمصر سنة 1913 م .
(2) الكامل للمبرد . القاهرة سنة 1956 .
(3) الطراز لليمني الجزء الاول .
(4) عيون الاخبار لابن قتيبة ـ القاهرة .
(5) ادبيات اللغة العربية طبعة 1909 .
(6) الفلسفة اللغوية . جورجي زيدان .
(7) مقدمة ابن خلدون طبع كتاب التحرير سنة 1966 القاهرة .
(8) فلسفة اللغة العربية للدكتور عثمان امين .
(9) تاريخ آداب اللغة العربية جورجي زيدان الجزء الاول .
(10) احياء النحو ابراهيم مصطفى 1926 م القاهرة .
(11) المزهر للسيوطي طبعة دار احياء الكتب العربية
(12) فقه اللغة للثعالبي المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة .
(13) فقه اللغة لمحمد المبارك . دمشق 1960 م
(14) مجلة الاقلام المجلد الاول . العراق .
(15) مجلة اللسان العربي . الرباط المغرب . « جميع الاعداد الاربعة الاولى » .

هل كانت العربية لغة خليل الرحمن ؟

الأستاذ علي الخطيب ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة

لغة خليل الرحمن ابراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ شغلت الباحثين من علماء الاديان فى العصر الحديث ، وبخاصة بعض الذين يهمهم أن ينحرفوا ببحوثهم فى اتجاه معين مسبوق بتخطيط ينسلخ بسببه العرب عن صلتهم بالخليل ، على نبينا وعليه افضل الصلاة والسلام .

واذكر ان الاستاذ عباس محمود العقاد ـ رحمه الله ـ قد وضع كتابيه : « ابو الانبياء : الخليل ابراهيم » و « الثقافة العربية اسبق من ثقافة اليونان والعبريين » وتصدى فيهما لهذه القضية واستطاع أن يرد الى نحر المنحرفين سهامهم . وتبع ـ رحمة الله عليه ـ منهج «تقصي الحقائق» فى بحثه الذى اشتمل عدة مناهج تلاقت نتائجها فى النهاية عند حقائق مثيرة تثبت صلة ابراهيم الخليل الوثيقة بالعروبة فى وقت مبكر يقع بين القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد .

ونحن نقتصر هنا ـ مستعينين بالله ـ على منهج « الحديث النبوي الصحيح » فى الكشف عن لغة خليل الرحمن ، فان السنة المطهرة قد استقام بها كثير من حقائق التاريخ والكون حين تعرض لها رسولنا الكريم المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وقد ساق الامام البخاري رضي الله عنه فى صحيحه حديثا ، رواه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ابان عن امر الخليل بمكة وافاض فيه حتى ليكاد يكون الحديث الوحيد الذى استوعب صفحات عدة من هذا السفر العظيم (1)، نوجز تلخيصه وتحديد موضوعاته فيما يأتي :

1 ـ تحدث عن الشخصيات الطاهرة التى نزلت مكة وقت كان ليس بها احد ولا ماء ، وهم : الخليل ابراهيم ، وهاجر وابنهما الرضيع اسماعيل صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين .

2 ـ نبع زمزم لهاجر وولدها .

3 ـ قدوم بطن عربي جرهمي واستئذانه هاجر فى السماح له بالاقامة فى مكة راضين بشرطها « الا حق لهم فى الماء » ، واستقدموا اهلا لهم ، وقد شب اسماعيل عليه السلام بينهم ، وتزوج منهم مرتين .

4 ـ زيارات ثلاث للخليل الى مكة لوديعته ـ عدا الاولى التى قدم فيها بأهله اليها ، وكان اخرها تلك الزورة التى بنى فيها البيت مع ولده ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وامر فاذن فى الناس بالحج .

وهذا الحديث الشريف يعطي حقائق موضوعية هامة توضح بعض ما غاب عن التاريخ فى منهجه الحديث :

اولها : بيانه الواضح عن مبدأ تاريخ العمران فى مكة ، والذين يعنون بتسجيل العصر التاريخي للامم القديمة ليس امامهم وثيقة ادق من هذا الحديث لبيان بدء العمران بمكة وارتباع الناس فيها وسكناهم بها ، فاذا كان الخليل ـ صلوات الله عليه ـ قد عاش

(1) صحيح البخاري 172/4 مطابع الشعب بالقاهرة 1378 هـ

بين القرنين السالفين من قبل الميلاد ، كان ذلك يعني ان هذه الفترة مبدأ دخول مكة عصرها التاريخي .

ثانيها : يوضح هذا الحديث الشريف فى جلاء نادر « حلقة مفقودة » لدى المؤرخين الذين توصلوا الى ممالك الاسماعيليين فى شمال الجزيرة مثل : تيماء ، ودومة الجندل وغيرهما ، دون ان يصلوا ـ عن طريق منهجهم ـ الى «مهاد» هذه الرؤوس الشريفة من ابناء اسماعيل ، اعني الصدر الاول من ابنائه لا احفاده ومن بعدهم ، فقد ظلت هذه المهاد حلقة مفقودة الا فى هذا الحديث ، فهو وحده الذى يقدمها عبر ضوء شديد ينير من حولها كل السبل ويقطع بأن الاسماعيليين صعدوا من الجنوب (مكة) فامتلكوا فى الشمال (أعالي الجزيرة) وليس العكس.

ثالثها : لغة خليل الرحمن ـ على نبينا وعليه افضل الصلاة والسلام ، وهنا يعنينا ان نتحدث عنها وحدها دون ان نتعرض للغة اسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وذلك لامر واحد ، هو ان اسماعيل نشأ رضيعا فى قبيلة جرهم وتلقى العربية عنهم ، وفى هذا الحديث الشريف جاء عنه .. « وشب الغلام وتعلم العربية منهم وانفسهم واعجبهم » لذلك نريد ان نتحدث عن لغة خليل الرحمن وحده ، وهو الذى لم يقطن مكة ولم يجاور جرهم الا سويعات فى الزيارة الثانية والثالثة ، ومدة بناء البيت فى الرابعة . أما الاولى فلم يكن بمكة يومئذ احد وربما لم يمكث فيها ساعة من نهار ، وها هو الجزء من الحديث الخاص بها ، قال ابن عباس رضي الله عنهما عن «هاجر» ـ عليها السلام : ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسماعيل ـ وهي ترضعه ـ حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى اعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ احد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى ابراهيم منطلقا، فتبعته ام اسماعيل ، فقالت : يا ابراهيم ! اين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذى ليس فيه انس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارا ، وجعل لا يلتفت اليها ، فقالت له : آلله الذى امرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : اذا لا يضيعنا . ثم رجعت . »

ولا يمكن ان يقال : ان ابراهيم مكث شيئا ذا بال بمكة ، انه ما ان وضعهما حتى انطلق راجعا ، وبالتالي ما كان فيها من احد غير اهله .

ولما كانت الزيارتان الثانية والثالثة كلاهما ذا اهمية فى الموضوع نسوقهما لنعرف منهما ما لغة خليل الرحمن عليه وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام ؟ وكلتاهما كانتا بعد زواج اسماعيل صلى الله عليه وسلم . واسماعيل تزوج مرتين من قبيلة جرهم العربية ، قال :

« فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد اسماعيل ، فسأل امراته عنه ، فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بشر ، نحن فى ضيق وشدة ، فشكت اليه ، قال : فاذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ، وقولي له : يغير عتبة بابه ، فلما جاء اسماعيل كأنه آنس شيئا ، فقال : هل جاءكم من احد ؟ قالت : نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك ، فاخبرته ، وسألني : كيف عيشنا ؟ فاخبرته : انا فى جهد وشدة ، قال : فهل اوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، أمرني ان اقرأ عليك السلام ، ويقول : غير عتبة بابك ، قال : ذاك ابي ، وقد امرني ان افارقك .. الحقي باهلك ، فطلقها »

هذه كانت الزيارة الثانية ، ويمكن ان يضع لها القاريء تقدير الوقت الذى استغرقته ، وهذه هي الثالثة .. قال :

وتزوج منهم (يعني من جرهم التى تزوج منها اولا) اخرى ، فلبث عنهم ابراهيم ما شاء الله ، ثم اتاهم بعد ، فلم يجده ، فدخل على امراته فسألها عنه ، فقالت : خرج يبتغي لنا ، قال : كيف انتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير وسعة ، واثنت على الله ، فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت الماء ، قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء

قال النبي صلى الله عليه وسلم : ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم دعا لهم فيه ، قال : فهما لا يخلو عليهما احد بغير مكة الا لم يوافقاه ، قال : فاذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه . فلما جاء اسماعيل قال : هل اتاكم من احد ؟ قالت : نعم ، اتانا شيخ حسن الهيئة ، واثنت عليه، فسألني عنك فاخبرته ، فسألني : كيف عيشنا فاخبرته انا بخير ، قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك ان تثبت عتبة بابك ، قال : ذاك ابي وانت العتبة ، أمرني أن أمسكك . »

ونعيد لفت نظر القاريء الى النظر فى قدر هذه الزيارة الزمني . ثم نلاحظ ان الخليل فى كلتي

الزيارتين اعقبهما بالرحيل فلم يمكث بمكة مقدار شهر او اكثر حتى نقول : انه اخذ اللسان العربي ابان اقامته .

واذا كان من الحقائق الهامة التي يقدمها هذا الحديث الشريف ان زوجتي اسماعيل : الاولى والثانية من جرهم ـ اذ نص على ذلك حيث يقول عن الاولى : « فلما ادرك زوجوه امراة منهم » وعن الثانية « وتزوج منهم اخرى » . ـ فهذا يعني ان كلا الكنتين عربيتان خالصتان ، ومن العسف أن يدعي مدع انهما تعلمتا لغة اخرى غير العربية .

كذلك ثبت لنا ان خليل الرحمن ـ على نبينا وعليه افضل الصلاة والسلام ـ لم يمكث بمكة قدرا يعلمه العربية ، وكان يخاطب كنتيه، وقد انفرد بكل منهما ـ دون ثالث يمكن ادعاء انه ترجم بين لسانيهما .

وهذا امر يعني ـ دون تردد ـ ان الخليل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان ذا لسان عربي مبين فما كانت «المخاطبة» بينهما ـ في كل مرة ـ كلمة عابرة تؤديها اشارة ، ولكنها حوار دار بين اخذ ورد انتهى بحكمه على كل منهما ، فواحدة كانت شؤم بيت زوجها والاخرى كانت حسنه وخيره

واذا كان الخليل ـ عليه السلام ـ ذا لسان عربي ولم يكن من اهل مكة ، ولا كان من اهل الجنوب (اليمن وما حولها) وكان من الشمال ، فهذا يعني ان العربية كانت مسيطرة ـ كلغة حياة ومعاش ـ في هذا الشمال الذي كان فيه الخليل وهنا نلتقي بالاستاذ العقاد ـ رحمة الله عليه ـ الذي يعطي بحثه نفوذ العربية القديمة في شمال الجزيرة حتى تخطت العراق وما كان الى غربه وشماله .

وحتى يتم لقاء «علمي» بين الحديث الشريف و « التاريخ » في منهجه الحديث ينبغي النظر في الهجرات العديدة التي تمت في العصر التاريخي لجنوب الجزيرة ، اعني منذ اربعة آلاف سنة من قبل الميلاد ، فقد توالت هجرات منه الى الشمال في خطين . وامتلكت بعض هذه القبائل الشمال ودان لها ، وفي منتصف هذه الآلاف الاربعة ظهر الخليل عليه السلام كعربي اصيل ، لانه منها ، ولانه يستحيل ايضا ان يدعو الى دين الله في قلب الجزيرة ، ويؤذن للناس بالحج ـ وفي مقدمتهم جرهم القاطنة حول البيت ـ بلسان غير عربي، قال تعالى: «وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم (ابراهيم 4) والحج شريعة الخليل عليه السلام .

ولسنا نقول : انه عليه السلام تحدث بالعربية التي هي عربيتنا ـ اعني لغة القرءان الكريم التي بها انزل ـ لكنها عربية زمانه بفصاحتها ، وما من شك انها كانت وليقة الصلة : اصولا وفروعا بعربية القرءان الكريم .

ولقد اوحى الى رسولنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ببعض دعائه في تعويذة كان يعوذ بها ولديه : اسماعيل واسحاق عليهما الصلاة والسلام ، فعوذ بها المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ولديه : الحسن والحسين ، فقال : اعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة »

قد لا تكون عين الالفاظ ، لكنها العربية ، وليس الفرق بينهما الا ان الاولى عربية الخليل عليه الصلاة والسلام ، والاخيرة عربية المصطفى خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم .

الحياة في اللغة العربية

الأستاذ إلياس فنصل الأرمنتية

— 1 —

تختلف اللغة العربية عن غيرها من اللغات بأن **« الحياة » التي فيها حياة خلاقة مبدعة** ذات عبقرية خاصة . وفي الوقت الذي نجد بقية اللغات ادوات للتعبير متى بلغتها فقد بلغت غايتها القصوى وانتهت مهمتها نجد ان الضاد لا تكتفي بهذه الغاية بل هي **تريد ان يكون التعبير جميلا** وتريد ان يمتد هدفها الى اكثر من ذلك فيتحول الى فكرة مستمرة للجمال والذوق والذكاء ، فكرة تندفع بصورة تلقائية وتتولد من نفسها كالطاقة الذرية سواء بسواء .

ولو احببنا ان نضع للامر مثلا بسيطا يقربه الى الاذهان لاستطعنا القول ان بقية اللغات كالساعات العادية تضبط لك الوقت اقرب ما يكون الى الدقة ، **اما اللغة العربية فكالساعة الذهبية** التي لا يمكن الا ان تكون مثال الدقة في ضبط الوقت لان معدنها يحمل صانعها على مراعاة قيمتها وتوفير الانسجام بين آلاتها الداخلية وغلافها الثمين — دفعة واحدة — آلة لمعرفة الوقت بالدقة المتناهية واداة للزينة تلفت الانظار ورصيد مادي يحتفظ بقيمته الابرائية .

ويأتيك البرهان في صيغة من صيغها العديدة :

« المبالغة » في ابسط صورها هي تضخيم الشيء بحيث يتوجه اليه الانتباه وقد حلت اللغات الاخرى هذه المشكلة — اذا جاز لنا ان نسميها مشكلة — بطريقة شكلية خلاصتها اضافة زوائد على الكلمة او تغيير آخرها .

وهذا التحوير يكبر الكلمة في « المعنى » فقط .

وما هكذا اللغة العربية .

ان اللغة العربية حين تود ان تضع الكلمة في قالب المبالغة تعمد الى « الحياة البشرية » فتنتبس منها ما يبث في الكلمة روح هذه الحياة .

واترك الموضوع قليلا على ان اعود اليه بعد سطور .

ان الرجل الذي ينعم بميزات الرجل لا يستطيع ان ينال من تحديقك اليه ما ينال الرجل الذي شاءت الطبيعة ان تضع فيه بعض ميزات المرأة .

انك تمر بالرجل « العادي » فلا تحفل به .

ولكنك اذا مررت برجل قد برز نهداه — مثلا — فلا يسعك الا التفكير به قليلا او كثيرا لان بروز النهدين من خصائص المرأة لا من خصائص الرجل .

وما نقوله عن الرجل نقوله عن المرأة .

ولا نعبأ بشعورك ازاء هذا التجاوز او ذاك على الحدود المرسومة لاحد الجنسين : ما نشير اليه هو ان هذا التجاوز يلفت نظرك .

وقد ادركت اللغة العربية هذه الظاهرة فطبقتها على صيغة المبالغة .

فاذا شئت ان تصف رجلا كثير الرحلات قالت عنه انه « رحالة » .

انها تقدمه لك وقد لحقت به التاء التي كان من حقها ان تلحق بالكلمة المؤنثة . فعلت ذلك لتلفت نظرك الى صفة المبالغة فيه .

واذا وصفت لك رجلا واسع العلم قالت عنه انه علامة .

وهكـــذا .

ان اللغة العربية في عبقريتها لا تكتفي بالطريقـــة الشكلية باضافة التاء الى الكلمة بل تعمد كذلك الى المعنى فتغير صفته وتملأ « عينيك وخاطرك » في نفس الوقت .

ان خصائص التانيث في الكلمة هي الوجه الآخر الذي يضع امام « الفكر » صورة صادقة عن المبالغة في حين ان اضافة الحرف ـــ التاء ـــ وتشديد عين الكلمة هي الوجه الاول الذي يضع امام « العين » الصورة المطلوبة .

وانت تنتقل بالمبالغة من « العين » الى « الفكر » ليتم المقصود من التحوير لتستطيع ان تلم اوسع الالمام بالمبالغة المتوخاة من التغيير .

وما ينطبق على الكلمات المذكرة ينطبق علـــى الكلمات المؤنثة ولكن بوسيلة عكسية .

ان صيغة المبالغة في الاولى هي الحاق علامـــة التانيث بها .

فمن الطبيعي والمنطقي ان تكون المبالغـــــة في الكلمات المؤنثة حذف علامات التانيث منها .

واذا بالمراة التي تصون نفسها امراة « مصون » ـــ لا امراة مصونة ـــ . واذا الحرب التي لا تبقى ولا تذر الحرب الضروس ـــ لا الحرب الضروسة ـــ .

ان هذا التغيير او هذا القلب يجعل عينيـــك تلتفت الى ما اريد من المبالغة ، ويجعل عقلك يمتلىء بالصورة التي وضعت لها .

ان تاء علامة ورحالة وما اليهما هي بروز النهدين في الرجل .

وان حذف تاء التانيث من مصونة وضروسة وما اليهما هي اللحية في ذقن المراة .

وليعذرنا الجنسان ـــ اللطيف والخشن ـــ فما اردنا الا تقريب القضية الى الاذهان .

ان لغتنا تمتاز كما اشرنا بهذه النفحة من الحياة التي تطل من تراكيبها وصيغها ومشتقاتها ومن كلماتها ايضا . وهذا سر من اسرار عظمتها وجبروتها .

لقد حاربها الطغاة في مختلف عهودهم وحاولوا ان يقضوا عليها .

ثم .. ذهب الطغاة **وظلت لغة الضاد تـــــزود القومية العربية بالقوة والجمال والخلود .**

ـــ 2 ـــ

الحياة في اللغة العربية حياة خلاقة مبدعة ذات عبقرية خاصة ـــ كما اشرنا سابقا ـــ وهي لا تكتفـــي بمسايرة التطورات المستحدثة ـــ كما تفعل بقية اللغات ـــ بل يجد الباحث فيها « حركة بشرية » في تفاعلها . **فكانها كائن حي يذهب ويجيء وتموج فيه العواطـــف والاحاسيس .**

ومن ابرز الميزات في اللغة العربية ان كلماتهاتنعم بهذه الحياة وبهذه الحركة التي نصف في الوقت الذي نجد الكلمات في سائر اللغات ادوات جامدة لا يدب فيها شيء من الحياة الا بعد ان تجتمع طائفة منها الى بعضها وتؤلف عبارة .

كتبت فئة من المتبحرين في علم اللغة ان الكلمات العربية ذات اصول ثابتة تتفرع منها المعاني المتقاربة ـــ مثلا النون والباء اذا اجتمعتا كانتا الجذر في مختلف معاني البروز والنبو ـــ فانظر الى فروع هذا الجذر :

نبت = برز من الارض .

نبط = اخرج ماء البئر

نبع = خرج من العين

نبغ = خرج وظهر

نبق = خرج وظهر

نبك = ارتفع

الى آخر ما هنالك من الكلمات التي تتشابه في الاصل .

هذا ما كتبه فريق من العلماء وقد اتخذوا كثيرا من الاصول ادلة واضحة صريحة .